مسرحيات لوركا

١

يرما

عرس الدّم

الإسكافية العجيبة

ترجمها عن الأسبانية

عبد الرحمن بدوي

الناشر

دار النهضة العربية

٣٢ شارع عبد الخالق ثروت

١٩٦٤

مسرحيات لوركا

١

يرما
عرس الدم
الإسكافية العجيبة

ترجمها عن الأسبانية
عبد الرحمن بدوي

الناشر
دار النهضة العربية
٣٢ شارع عبد الخالق ثروت

١٩٦٤

المطبعة العالمية ١٦ ، ١٧ ش ضريح سعد بالقاهرة

تصدير عام

— ١ —

فدريكو غرسيه لوركا عبقرية ساحرة ، أحاط بها السر فى حياتها وإنتاجها وموتها ، وشاع فيها التوتر الحى الجامع بين الأضداد فى وحدة إنسانية جذابة .

كان شاعراً يستمد الوحى من الروح الشعبية الأسبانية بما تنطوى عليه من حرارة وعنف واحتفال للأسرار وإيغال فى التهاويل ، فأنشأ قصائد غنائية بلغت الذروة فى الموسيقى والمعانى وقوة التأثير الانفعالى ؛ ومن هنا عُدّ — إلى جانب رلكه — أعظم شاعر فى هذا العصر .

وكان مؤلفاً مسرحياً تميزت مسرحياته بالبساطة فى الموضوع ، والغنائية ، وعنف العواطف ، والجو المشحون بكهرباء الانفعال الإنسانى الأولى الأصيل .

وكان إلى جانب هذا رساماً وعازفاً وماجناً .

« كان دميا ، ولكن دمامته كانت أجمل بكثير جداً من الجمال المعتاد ؛ وكانت طلعته طلعة فلاح أندلسى متوسط القامة ، عريض المنكبين ، مكتنز اللحم ، وله عينان سوداوان سواد الليل ، سريعتان ، رائعتان ، تلتمعان ذكاء . وكان لونه شاحباً وسيماه متحولة . وكان يشع لطفاً ويتواثب فرحاً . وإذا غنى لدى البيانو اتخذ وجهه الخشن التقاطيع سمة الانفعال المتجلى »(١) .

« وكان بريقاً من البرق ، وقوة فى حركة دائبة ، وسروراً ، وبهاء ، وسحراً

---

(١) ج . ل . شونبرج : « غرسيه لوركا : الرجل وإنتاجه » ؛ باريس ، عند الناشر بلون سنة ١٩٥٦ ، ص ٢٥ :

J.-L. Schonberg : *Garcia Lorca. L'Homme — l'oeuvre*. Plon, éd.

خارقاً للانسانية . وكان كيانه ساحراً ذهبياً ، تفيض السعادة منه »[1] .

وكان ذا ضحك وافر الإخلاص : مشرق ، قلبي ، نصف ساذج ونصف شيطاني ؛ وكان ذا مزاج ناري ، تلقائي بل وحشي ؛ وما أعجب طريقته في السير وفي الحديث حتى الفجر ! كل جملة من جمله كانت فكرة ، وكل كلمة كانت شعراً .

« وكان جنوبياً (من جنوب أسبانيا) ينضح ذلك من كل مسامه : أسمر البشرة ، ذا عينين براقتين حافلتين بالحيوية ، وشعر أسود كثيف . . . وكان لطيف الإشارة ، عنيفاً قوى الطاقة ، يتخلل ذلك فترات استرخاء رقيق ؛ وكان ملتهب المزاج ، شاباً مندفعاً — فسيحاً دقيقاً معاً — ، ذا خيال سريع كل السرعة ... ينم حديثه عن شخصية عنيفة ، وحشية ، وفي نفس الوقت وعند اللزوم خفيفة الظل نضرة كأنه خطرة النسيم . وفي ثنايا حديثه ، المطرز بالصور الرائعة والتشبيهات المثيرة ، تتبدى الأندلس على نحو جديد : الأندلس في صورة معارضة تماماً لتلك الصورة التي شوهها أدب حافل بالعبارات المبتذلة ، الأندلس الملىء بالوجدان والحساسة والحياة الباطنة التي تذكر في كل لحظة بلوحة لبيكاسو »[2] .

ولد فدريكو غرسيه لوركا Federico Garcia Lorca في الخامس[3] من شهر يونيو سنة ١٨٩٨ بقرية فونتبكروس Fuentevaqueros بمحافظة غرناطة من أب ثرى يحب المغامرة والفروسية ، ويشيع فيه الوجدان ، وأم ، هي بيثنته Vicenta ، تمتاز بالذكاء ، كانت تقوم بالتعليم قبل اقترانها ببعلها هذا ، فابتدأت

(١) P. Neruda, in *Hora de España* (Valencia), II, 1937, p. 65.

(٢) F. Garcia Lorca : *Cartas a sus amigos*. Barcelona, Cobalt, 1950, p. 9.

(٣) هذا هو التاريخ الصحيح كما صرح بذلك لوركا نفسه وتأكد من صحته خوان جريرو إذ اطلع على شهادة التغطيس في ماء المعمودية .

تعلم ابنها مبادىء الأبجدية ونمت في وليدها الحساسية الفنية ، وكان أبوه أرمل لما اقترن بأمه هذه .

ولم يكن لوركا طفلا مبكر النضوج العقلي ؛ بل ظل حتى الثالثة لا يستطيع النطق ، ولكنه كان يتأثر منذ سنيه الأولى بالإيقاع النغمي والأدوار الشعبية . وظل حتى الرابعة لا يستطيع المشي ، وكان لذلك أثره فيما بعد ، إذ ظل سيره باعتناء من بدنه . « وكان من نتائج هذا أنه اتخذ موقفا يتسم بالتأمل والتفكير زاد من قدرة خياله ؛ وكان يلاحظ العالم الخارجي باهتمام كبير ، مثيراً بهذا إدراكه الدقيق إلى ما هو لطيف رقيق في الطبيعة والفن ؛ وهو أمر يميز غرناطة »[1] . ولكن أنخل دل ريو ينكر هذا التقرير لحال طفولة لوركا الذي كتبه نادال ، وقال إن طفولة لوركا كانت عادية تماما ، لا تتميز إلا بذكاء يقظ وإحساس شديد بما هو درامي جعله في تلك السن يعبر عنها بصنع مذابح صلوات وتشييد مسارح صغيرة وإلقاء القداس بين إخوته بعبارات ملتهبة ومواعظ حامية يوجهها إليهم وإلى خدم البيت ، وكان يشترط عليهم أن يبكوا بعد انتهاء مواعظه !

وجرت التقاليد في أسرته على حب الأدب . فجده لأبيه ، انريكه غرسيه ، كان من أشد المعجبين بفكتور هوجو ، وهذا يفسر كيف كان هوجو يشغل القدر الأكبر من قراءات الفتى لوركا . وكان أبوه من المعجبين برواية : « دون كيخوته » وحرص على تلقين هذا الحب لأبنائه .

عاش لوركا في الريف في مطلع صباه . ثم التحق بمدرسة أولية في ألمرية ، بعدها انتقلت الأسرة إلى مدينة غرناطة حيث دخل الفتى مدرسة القلب المقدس ثم المعهد ثم الجامعة . قال لوركا في حديث له مع خيمينس كبيرو نشرته « المجلة

---

(١) R. M. Nadal : *Poems of F. Garcia Lorca*, introduction, Oxford University Press, 1939, pp. VII-VIII.

الأدبية »[1] الصادرة فى مدريد فى ١٥/٦/١٩٢٨ : « درست كثيراً . كنت فى مدرسة قلب يسوع المقدس بغرناطة . وكنت أعرف الكثير ، الكثير جداً . لكنهم كانوا يضربوننى فى المعهد ضرباً موجعاً . ثم بعد ذلك التحقت بالجامعة . ورسبت فى الأدب وفى قواعد اللغة الأسبانية وتاريخها . لكنى اكتسبت شعبية هائلة بوضعى الألغاز والألقاب للناس » .

فى الجامعة تابع دروس الفلسفة والأدب والقانون ؛ ولكنه لم يتم أية دراسة منها ، ولم يتم شيئاً منها فى مدريد حين سافر بعد ذلك إليها بدعوى إتمام الدراسة . وإنما حصل على الليسانس فى القانون من جامعة غرناطة بعد ذلك بثلاث سنوات ، أعنى فى سنة ١٩٢٣ .

وصل لوركا إلى مدريد فى ربيع ١٩١٩ ، فوجدها فى ذلك العهد ثرة بالحياة الفنية والعقلية والسياسية . كان الجو مشحوناً بالفورات السياسية والاجتماعية ، وكانت النزعة إلى الحرية هى النغمة السائدة . وفى الأدب كانت أنباء التيارات الأدبية الثورية تصل إلى مدريد فتؤثر فيها : من إيطاليا النزعة المستقبلية ، ومن فرنسا الحركة الدادائية . وكان الشباب الأسبانى أكثر الناس تأثراً بهذه النزعات ، فقامت جماعة صغيرة متمردة تعبر عن فورانها فى مجلات قصيرة العمر مثل : « جرثيا » ، « ثربنتس » ، « أولترا » ، ثائرة على روبندريو ونزعته الخائرة ، مؤكدة نفسها . وكان جيل سنة ١٨٩٨ لا يزال فتياً يشارك فى الحركات التقدمية فى الفكر والفن والأدب ، مثل المفكر الشهير اورتيجا اى جاست ، وميرو ، وخوان رامون خيمينث . فكان لهؤلاء أثر بالغ فى لوركا .

وأقام لوركا فى بيت الطلبة Residencia de Estudiantes المشهور فى مدريد ، وبدأ يعقد صلات مع الأدباء والشعراء : مع الشاعر العظيم خوان رامون خيمينث الذى حصل على جائزة نوبل فيما بعد ، ومع الرسام الشهير سلفادور دالى أحد روّاد النزعة السريالية ، ومع رفائيل ألبرتى الشاعر اليسارى الثائر .

---

(١) *Gaceta Literaria*.

وبدأ لوركا ينشد شعره ، بعد أن كان يقتصر على قراءته شفاهاً لأصدقائه أو فى محاضرات . فبدأ بأن نشر فى « مجلة الغرب » *Revista de Occidente* سنة ١٩٢٦ قصيدة موجهة إلى سلفادور دالى ؛ وفى السنة التالية : سنة ١٩٢٧ نشر ديوانه الأول : « الأغانى » *Canciones* ، ومثلت له فى مسرح فونتلبلة بمدريد أولى مسرحياته وعنوانها « ماريانا بينيدا » . وعرض له فى برشلونة رسومات ذات تأثر ببيكاسو .

وكانت سنة ١٩٢٨ أوج نشاطه . ففيها نشر ديوانه الثانى والأشهر وهو « أناشيد النوَر » *Romancero Gitano* ؛ كما أذاع فى مختلف المجلات قصائد أو مقتطفات نثرية ، مثل القصيدة الموجهة إلى المرسم الأقدس (« فى مجلة الغرب » ، ديسمبر سنة ١٩٢٨) ، « الوحدة » وقد أهداها إلى الشاعر الصوفى الرقيق الأخ لويس دى ليون (١٥٢٧ — ١٥٩١) .

لكن تواريخ النشر لا تتفق مع تواريخ التأليف . فـ « الأغانى » *Canciones* قد أنشأها لوركا فى المدة ما بين سنة ١٩٢١ وسنة ١٩٢٤ ؛ و « أناشيد النوَر » ألفها بين سنة ١٩٢٤ و ١٩٢٧ . وقصائده التى تعد خير شعره وعنوانها : « قصيد النشيد النوَرى » *Poema del Cante jondo* ألفها فى سنتى ١٩٢١ ، ١٩٢٢ ومع ذلك لم ينشرها إلا فى سنة ١٩٣١ ، و « أغانيه الأولى » لم تنشر إلا بعد وفاته .

وكان لنشر ديوان « أناشيد النوَر » دوى هائل ، فأصبح الشاعر بفضله فى قمة الشهرة . فانتشرت هذه الأناشيد على ألسنة جمهور الناس وراح الشعراء الشباب يمجدونه بوصفه سيد الشعراء . فقامت جماعة من الشباب الشعراء فى غرناطة بنشر مجلة تدعى Gallo (الديك) تستلهم شعره ومقاصده .

لكن هذه الشهرة نفسها بعثت فى نفس لوركا الاكتئاب . فكما قال مرتينث نادال : « كلما مرت الشهور إزدادت شعبية كتاب « أناشيد النور »

وازداد شعور الشاعر (لوركا) بثقل إنتاجه عليه . ولهذا ولأسباب شخصية أخرى مر الشاعر بفترة خمود كانت الوحيدة فى حياته . فاستحال حزيناً ، ينشد العزلة ، ولم يعد يتحدث عن مشروعاته ، وأغرب من هذا ، كف عن إنشاد أشعاره»[1] . ولعل السبب فى ذلك شعور لوركا بان الشهرة تفسد الموهبة ، خصوصاً إذا جاءت عن أسهل الطرق . هنا بدأ يراجع نفسه ، ورأى أنه لابد أن يهرب من جو الشهرة ، أن يهرب من أسبانيا .

إلى أين هرب لوركا ؟ إلى نيويورك ، ولعل الذى دفعه إلى هذا الاختيار مجرد المصادفة ، وهى أن ناصحه الأمين فرننددو دى لوس ريوس كان بسبيل القيام برحلة إلى أمريكا . فسافرا معاً إلى نيويورك فى مستهل صيف سنة ١٩٢٩ ، بعد أن مرّا مروراً سريعاً بباريس ولندن فلم يذكر عنهما إلا مشاهدته لمتحف اللوفر فى الأولى والمتحف البريطانى وأنوار ميدان بيكادلى فى الثانية .

وفى نيويورك أقام فى بيت إقامة خاص بجامعة كولومبيا . وحاول دراسة اللغة الانجليزية فلم يفلح . وإنما عكف على تدريس الأغانى الشعبية الأسبانية لطلاب اللغة الأسبانية فى تلك الجامعة . وكان يلذ له التجول فى الأحياء الشعبية الحافلة بالسكان فى نيويورك حيث تختلط الأجناس من كل الألوان : فى الحى الشرقى East side حيث يقيم اليهود والحثالة ، وفى حى هارلم الحافل بالزنوج وألهمه ذلك قصائده العظيمة المستوحاة من نيويورك ، وعلى رأسها : « قصيدة إلى ملك هارلم» و «ليلية جسر بروكلن» وفى نهاية الصيف أمضى لوركا فترة فى الريف فى جبال كاتسكل، حيث استلهم قصائد مثل : «البنت المغرقة فى البئر» ؛ « ليلة الخلاء ومنظر قبرين وكلب أشورى » .

وعاد إلى سكنه فى جامعة كولومبيا فى الخريف حيث تابع تدريس الأغانى الشعبية ولقى الأستاذ داماسو ألونسو الذى كان أستاذاً زائراً فى ذلك العام فى

---

(١) مارتينث ناهال ، الكتاب المذكور ، المقدمة .

« هنتر كولدج » . وقد روى داماسو ألونسو ذكرى حفلة أقامها مليونير أمريكي ، فقال إن رواد الحفلة بعد أن توزعوا في الأبهاء عادوا حاشدين حول بيانو : « ماذا حدث ؟ لقد أخذ فدريكو (لوركا) في العزف على البيانو وإنشاد أغان أسبانية . ولم يكن القوم يعرفون الأسبانية ولم تكن لديهم أدنى فكرة عن أسبانيا . لكن كان من قوة تأثير تعبيرات لوركا أن النور قد نفذ في هذه الأدمغة البعيدة »[1] .

وفي جامعة كولومبيا ألقى محاضرة مشهورة عن « الخيال والإلهام والفرار » ؛ ثم ألقى محاضرة أخرى في فاسر كولدج عن « أغاني المهد في الشعر الأسباني » مع إيضاح بالموسيقى المأخوذة من مجموعات الأغاني الشعبية .

كذلك كان كثير اللقيا مع الأرجنتينيــة ، المغنية الشهيرة ، ومع اغناسيو سانشث مخياس Mejías وكانا يقيمان فترة في نيويورك . وكان من نتائج ذلك أن تعاون لوركا معها على إنشاد بعض أغاني « أناشيد النور » .

وعكف على إنشاء قصائد هي التي ستؤلف ديوان : « شاعر في نيويورك » . كما كتب شطراً كبيراً من مسرحية « الاسكافية العجيبة » .

ثم جاءته دعوة لإلقاء محاضرات في المعهد الثقافي الأسباني في كوبا ، فرحل إلى «الجزيرة الجميلة ذات الشمس المحرقة» ، إلى كوبا . فقضى فيها شهوراً يقر هو بأنها أسعد أيام عمره . فهنا الشمس وحرارة العواطف والانفعالات ، وهنا الإيقاعات المشبوبة والأغاني الحية والرقصات الرشيقة ؛ وهنا ما يذكره بأندلسه الحبيب . فانطلق يؤلف القصائد ، ويكتب فصولاً من مسرحيته : « لما تمضي خمس سنوات » و « الجمهور » .

ثم عاد لوركا إلى أسبانيا في صيف سنة ١٩٣٠ بعد أن شاهد عوالم

---

(١) من بحث له عن «لوركا والتعبير عما هو أسباني» ، ضمن كتابه « مقالات في الشعر الأسباني » ص ٣٤٥ — ٣٤٦ .

جديدة ، ونضجت معانيه الشعرية ، واستقرت أحواله النفسية .

ومن هذا الوقت وإنتاجه يتسم بالنضوج والجهد المتواصل .

وأخذ يدير مسرح « البراكا » هو وإدوردو أوجرته فى مدريد . وفى سنة ١٩٣٠ مثلت له مسرحية « الاسكافية العجيبة » ؛ كما نشر « قصيد النشيد الـنَّوَرِى » .

وفى سنة ١٩٣٣ مثلت له مسرحية « عرس الدم » التى بفضلها أصبح ينظر إليه على أنه الشاعر الأكبر للمسرح الجديد .

وفى نهاية هذا العام سافر إلى بوينس أيرس فى الأرجنتين ، حيث لقيت مسرحياته : « عرس الدم » ، « ماريانا پينيدا » و « الاسكافية العجيبة » — لقيت نجاحاً منقطع النظير فى أوساط الجماهير .

وعاد إلى مدريد ، فمثلت له مسرحية « يرما » ، وكتب مسرحية « السيدة روسيتا العازبة » ، وأعد للنشر « ديوان التمريت » .

وفى سنة ١٩٣٥ نشر نصاً موسعاً مزيداً لمسرحية « الاسكافية العجيبـة » وألهمه مقتل صديقه سانشث مخياس ، مصارع الثيران ، قصيدة من أروع قصائده ، إن لم تكن أروعها جميعاً . وقد ترجمناها شعراً ونشرناها فى مجلة « المجلة » (عدد مايو سنة ١٩٦٢) .

وفى السنة التالية — ١٩٣٦ — فرغ من تأليف مسرحية : « بيت برناردا ألبا » وأعد مسرحية طراغودية هى « تدمير صادوم » .

« وكان نضوجه قد تفتح كأنه فتحة ، ومدخل إلى ملكوته : « المرثية » ، « ديوان التمريت » ، « برناردا ألبا » ثم . . . الله أعلم ! مستقبل حافل ، كان يعمل فى سبيله بعزم وفرح ؛ وكانت كل عقبة تستسلم أمام شخصيته وجنه الملائكى . ولم يكن عليه أن يصارع غير صعوبات التعبير المعتادة . ماذا كان يمكنه أن يعيق

فى سبيله ؟ ولهذا تنبأت للسيد فدريكو ، والد الشـاعر (وقد ذكرنى هو بذلك فيما بعد ، فى أمريكا) ، فى لحظة مبالغة يمكن تفسيرها بكون لوركا بدا أنه لم يكن له غير أصدقاء — فقالت : «لو حدثت ثورة ، فإنه لو نجا منها أسبانى واحد ، فهذا الأسبانى سيكون فدريكو »[1].

ولـكن الذى حدث هو عكس ماتنبأ به جورخى جيين Guillen . فبعد قيام الحرب الأهلية الأسبانية ، قتل لوركا فى الثامن عشر من شهر أغسطس سنة ١٩٣٦ .

ذاك أن لوركا غادر مدريد فى يوليو سنة ١٩٣٦ وتوجه إلى غرناطة ابتغاء أن يحتفل بعيد القديس الذى يحمل اسمه بين أسرته . ولـكن الثورة ضد الجمهورية بدأت فى ١٧ يوليو فى مراكش الأسبانية ، ومنها انتشرت فى سائر أنحاء أسبانيا بقيادة الجنرال فرانكو فلجأ لوركا إلى أسرة روسالس ، وهو قد كان صديقاً حميا للشاعر لويس روسالس الذى كان بيته مركز قيادة حركة الفالانج فى غرناطة . لـكن عبثاً ! فقد جاءت فصيلة من الجنود الفالانج من أنصار الوطنيين (أتباع فرانكو) وقبضت عليه . وأطلق عليه الرصاص فى فجر اليوم التالى ، وألقى بجثته فى مكان غير معروف ؛ ومن المرجح أنه ألقى به فى الجبال عند بثنار على مسافة أميال قليلة من غرناطة .

فـكان لمصرعه دوى هائل فى أنحاء العالم ، إذ أثار موجة من السخط الشديد خصوصاً ولم يعرف عن لوركا أنه كان يشايع الجمهوريين وإن كان له بينهم أصدقاء عديدون .

ولا تزال أسباب قتله تكتنفها الأسرار ، والمؤرخون يفترضون لها الكثير من الفروض ، بل وأغرب الفروض .

وقد عزمنا على أن نقدم لقراء العربية مجموع مؤلفات لوركا ، مبتدئين بمسرحياته . وها نحن أولاء نقدم فى هذا الجزء الأول ثلاثاً منها ، هى :

(ا) يرما

(ب) عرس الدم

(حـ) الإسكافية العجيبة

فلنقتصر هنا على الحديث عنها ، وهكذا نفعل فى كل جزء : نتحدث عما ترجمناه فيه .

(ا) يرما

قصيدة أسبانة فى ثلاثة فصول وست لوحات

كتبها لوركا فى سنة ١٩٣٤ ، وموضوعها هو خيبة الحب بسبب عجز الزوج عن الاستجابة لوجدان زوجته ، وهو موضوع شغل لوركا مدة مديدة ، وعالجه من زوايا مختلفة فى قصائده الأولى ، وفى مسرحية « ماريانا پينيدا » و « لما تمضى خمس سنوات » و « السيدة روسيتا العازبة » و « السيد پرلمبين » وكذلك فى بعض قصائد « أناشيد النور » . وتنطوى على نفس الفكرة التى يعالجها فى مسرحية « عرس الدم » .

ووجدان الزوجة هنا هو الرغبة فى أن تنجب ولداً ؛ ولكن الزوج عقيم ، والعفة تحملها على الأمانة الزوجية فلا ترضى أبداً أن تخون زوجها مع شخص آخر لتنجب ولداً . فتقتل زوجها العقيم أفضل من أن تخونه ، على الرغم من النزاع العنيف فى داخل نفسها بين نوازعها الفطرية إلى الولد وما يمليه عليها واجبها الأخلاقى .

والعناصر الدرامية فى هذه المسرحية قوية ، أقوى من العناصر الغنائية على الرغم من وفرة الأغانى فيها .

(ب) عرس الدم

مثلت لأول مرة فى مسرح بياتريث بمدريد فى سنة ١٩٣٣ .

وموضوع المسرحية هو النزاع فى الريف بين أسرتين وما استتبع ذلك من مصرع رب أسرة وابنه ، وما تحمله الزوجة من ذحل ضد أسرة القاتلين ، ثم ابنها المسكين الذى تخشى عليه أن يكون مصيره مصير أبيه وأخيه من قبل ، ثم الصراع بين هذا الفتى وبين فتى آخر على امرأة تنازعها إغراء العريس الذى سيكفل لها الهدوء والرخاء ، وهو ابن الأرملة التى قتل زوجها وابنها ، كما تنازعها إغراء حب الفتى الآخر الذى من أسرة القتلة . فالصراع هنا صراعان : صراع الأسر العريقة فى الريف بين بعضها وبعض على الأرض والجاه ، وصراع إمرأة يتنازع عليها إثنان : أحدهما غنى هادىء الطبع ، والآخر فقير عنيف الوجدان . والأول هو العريس ، والثانى هو ليونردو الذى هجر العروسة بعد أن كان يحبها وتزوج بفتاة أخرى ، فما كان من هذه العروسة إلا أن قررت الزواج بالعريس ، ابن الأرملة التى قتل زوجها وابنها أسرة ذلك العاشق الماجر ليونردو . وتجرى مراسم الاحتفال بالزواج فى جو متكهرب ، مشحون بالنذر السيئة . فتهرب العروسة مع ليونردو الذى كان قد تزوج بفتاة أخرى ؛ فيطاردهما العريس المهجور ، وتنتهى المعركة بمقتل المتنافسين فى صراع عنيف داخل الغابة . وفى النهاية نشاهد ثلاث نسوة : العروسة ، وأم العريس وأرملة ليونردو وهن يعبرن عن بغضهن وحزنهن ووحدتهن ويذرفن أحر العبرات .

والموسيقى والغناء عنصران أساسيان فى هذه المأساة ؛ وقد تخللتها أغان شعبية تدور حول الزفاف وهدهدة الأطفال .

وجوها هو جو الأندلس المشبوب بالوجدانات الحادة العنيفة : الخناجر والأفراس الراكضة ، وتسبيحات الحطابين فى ضوء القمر الباهر الذى اتخذ

صورة انسانية حية ، ومنازعات الفلاحين حول شراء الأراضى وكدهم المستمر فى سبيل تثميرها .

« الشهوة والبغضاء والحب والمصير الأليم الذى يجر وراءه موتاً دامياً عنيفاً — هذه هى الموضوعات الأساسية فى هذه المسرحية . وتحت هذه المعانى وبمثابة ينبوع لكل هذه الأحداث الإنسانية العنصرية ، مما يرفع الماساة إلى مستوى القضاء المحتوم — الأرض التى تستولى على نفوس كل الشخصيات وتلهمها . وليوناردو يرى أن المبرر الوحيد لحبه الإجرامى هو الأرض : ليس الذنب ذنبى ، إنما ذنب الأرض ، وذنب هذا العطر الصاعد من نهديك وغدائرك » والحطابون فى تفسير رمزىٍّ خلال منظر الجريمة يفسرون قوة الأرض بوضعها قضاء وغاية وهدفاً يولد الشهوات الإنسانية وشهوات المحبين ، ويسبب نهاية كليهما ... الأرض هى قبل كل شىء الطين المبتل الذى يغذى جذور الحزن والبغضاء فى الأم ، الأم التى تتجسد الوجدان المحرك لهذه الماساة . والأرض هى رفيقتها الوحيدة فى وحدتها الموحشة ، لأنه فى باطن الأرض يرقد من ولدوا من أحشائها ... والأرض هى السلوى الوحيدة ، لأنها تحيل دم الموتى إلى ينبوع للحياة جديد .

« إن عرس الدم عمل فنى من أعلى طراز . وفيه نستطيع أن نستكشف أنفاس التأثير الكلاسيكى ، ولمسة من المأساة النابعة من البحر المتوسط بل وقسمة من فن شكسبير . ومصادرها عديدة . فقد استعارت من القومودية التقليدية الأسبانية اللمسات الفلاحية وصناعة الجمع بين الموسيقى والفعل . وجو فصل الزفاف كله يذكرنا بلوبى دى فيجا . كما نستطيع أن نعثر على لمسات حديثة فى رمز الموت ، الذى يبدو أنه مستوحى من ميترلنك ، وفى الخلفية الشعبية الأندلسية المقرونة بالتفصيلات الواقعية التى توحى بالأخوين ما تشادو . واستخدام الشاعر للطراغورية العارية يذكرنا أيضاً بدنونتيسو الأدبى أو السحر اللفظى الخالص والجو العتيق اللذين يتميز بهما ڤاى انكلان .

وحينما نذكر هذه التأثيرات لا نقصد أنه تأثر بها تأثراً مباشراً ، بل كانت بمثابة ذكريات لا شعورية غامضة (باستثناء لوپي دى ڤيجا) . إن لوركا لا يهجر ولو للحظة واحدة ، عالمه الشعرى الخاص وأسلوبه الخاص فى التأليف بما فيه من حدود وما فيه من عبقرية . فمسرحية « عرس الدم » بما فيها من مزيج مؤلف من عناصر مختلفة ، ليس لها سلف واضح أو مصدر »[1] .

(حـ) « الإسكافية العجيبة »

مثلت لأول مرة فى « المسرح الأسبانى » بمدريد سنة ١٩٣٠ ؛ ثم مثلت بعد ذلك برواية أخرى أوسع فى مسرح الكولسيوم فى سنة ١٩٣٥ .

وهى كوميديا خفيفة ، ولكنها حافلة بالحركة والحياة ، وفيها طابع التشرد وحكايات الشعراء الجوالين .

وموضوعها يتلخص فى أن إسكافياً بلغ من العمر ثلاثاً وخمسين سنة تزوج من فتاة لعوب فاتنة جميلة عمرها ثمانى عشرة سنة ، فاستغلت هذا الفارق فى السن للتعالى عليه والتدلل ، واستباحت لنفسها أن تغازل الشبان من نافذة بيت الاسكافى المسكين المستغرق بين الأحذية والجلود والقطران ! وتزداد فى تبجحها ووقاحتها عليه حتى ينفد صبره فيقرر الهرب من القرية . ويهرب ، وتصبح الاسكافية اللعوب وحدها ، فتحيل دكان الاسكافى إلى حانة للشراب يفد إليها الشباب والعمدة — المتيم بها ، على الرغم من أنه تزوج بثلاث نسوة توفين ! وتدور الشائعات الخبيثة حولها على شكل أغان يتغنى بها الناس .

ثم يعود الاسكافى متخفياً فى زى حاو يقوم بألعاب ؛ ويعرف ما جرى لزوجته فى غيبته ، ويدرك إخلاصها له طوال هذه الغيبة ، وينتهى الأمر بأن يصلح ذات بينهما ويخلص الحب بينهما ، بعد هذه التجربة القاسية .

---

(١) Angel del Río : *Vida y obras de Federico García Lorca*, pp. 133-137. Zaragoza, 1952.

وكما فى سائر مؤلفات لوركا تلعب الأغانى دوراً رئيسياً ، ولكنها تمتاز بالجو الهزلى اللطيف ، وبالتهكم الباسم ، وباللمحات الرشيقة التى تخفف من الجو الدرامى إذا لاح شبح الدراما . وينطبق عليها ما قاله لوركا : « إذا حدث فى بعض المناظر أن أصبح الجمهور لا يدرى ماذا يفعل : هل يضحك أو يصرخ ، فهذا علامة النجاح عندى » ، وقوله فى موضع آخر : « إن المسرح مدرسة الألم والضحك »[1] .

القاهرة فى فبراير سنة ١٩٦٤ — عبد الرحمن بدوى

---

(١) F. G. Lorca, "Charla sobre teatro", in *Obras Completas*, p. 34. 1954. Madrid.

يرمـــا

قصيدة أسبانية فى ثلاثة فصول

وست لوحات

(سنة ١٩٣٤

الأشخاص

يرما
مارية
وثنية عجوز
دولورس
غاسلة أولى
غاسلة ثانية
غاسلة ثالثة
غاسلة رابعة
غاسلة خامسة
غاسلة سادسة
فتاة أولى
فتاة ثانية
امرأة
كنة أولى
كنة ثانية
عجوز أولى
عجوز ثانية
صبي
خوان
فكتور
رجل
رجل أول
رجل ثان
رجل ثالث

اللوحة الآولى

[حينما يرتفع الستار تكون يرما راقدة ، وعند قدميها سلة الشغل . وعلى المسرح ضوء أحلام غريب . يدخل راع على أطراف قدمية وهو يحدق فى يرما . ويقود بيده صبياً يلبس ثوباً أبيض. الساعة تدق . وحينما يخرج الراعى ، يستحيل الضوء إلى نور صباح مشرق فى الربيع . تستيقظ يرما]

أغنيـــــة

صوت من الداخل] :

للنـــانا ، التانا ، التانا

للنـــانا سنبنى عشـــا

فى الحقـــــل انتأوى فيه

يرما : خوان ؟ سامعنى يا خوان ؟

خوان : حاضر .

يرما : حان الوقت .

خوان : هل مرّت الثيران ؟

يرما : نعم مرت منذ قليل .

خوان : إذن ، إلى اللقاء عما قليل . [وهو يخرج]

يرما : ألا تتناول كوباً من اللبن ؟

خوان : لماذا ؟

يرما : إنك تشتغل كثيراً وجسمك لا يحتمل الشغل الكثير .

خوان : حينما يظل الإنسان نحيلا يصير قوياً كالصلب .

يرما : أما أنت ، فلا . حينما تزوجنا كنت غير ذلك . أما الآن فوجهك أبيض ، كأن الشمس لم تلفحه أبداً . وأنا أود أن أراك تلقى بنفسك فى النهر وتسبح ، وأن أراك تتسلق السطح حينما ينفذ المطر فى داخل البيت . لقد تزوجنا منذ أربعة وعشرين شهراً ، وها أنت ذا دائماً تزداد حزناً ونحولاً كأنك تنمو فى اتجاه عكسى .

خوان : هل انتهيت ؟

يرما [وهى تنهض] : لا تتضايق . لو كنتُ مريضة لوددت أن تُعنى بى : « زوجتى مريضة » — سأذبح لها هذا الخروف وأطهى لها به طبقاً من اللحم الشهى . « زوجتى مريضة » — سأحتفظ بهذه الدجاجة السمينة لأروِّح عن صدرها ؛ وسأحمل لها جلد الشاة لأحمى قدميها من الثلج . أنا هكذا ! ولهذا أنا أهتم بشؤونك .

خوان : وأنا أشكر لك ذلك .

يرما : لكنك لا تترك لى فرصة العناية بك .

خوان : ذلك لأننى لست فى حاجة إلى ذلك . إنك تخترعين هذا كله . أنا أشتغل كثيراً ، وكل عام أزداد شيخوخة .

يرما : كل عام . . . أنا وأنت نقضى هنا كل عام . . .

خوان [باسماً] : طبعاً . ونحن فى هدوء ! فالأشغال حسنة ، وليس لنا أولاد ننفق عليهم .

يرما : ليس لنا أولاد ! . . . خوان !

خوان : قولى لى .

يرما : وأنا ، أفلا أحبك ؟

خوان : نعم ، أنت تحبيننى.

يرما : إننى أعرف بنات كن يضطربن ويبكين قبل الدخول فى السرير مع أزواجهن . أما أنا ، فهل بكيت حينما نمت معك لأول مرة ؟ أو لم أكن أغنى وأنا أرفع النقاب المنسوج من التيل الهولندى ؟ أو لم أقل لك : كم تعبق هذه الملايات برائحة التفاح !

خوان : نعم ، قلتِ ذلك .

يرما : لقد بكت أمى لأنى لم آسف على تركها وكان ذلك حقاً ! لم تتزوج فتاة بمثل هذا السرور . ومع ذلك . . .

خوان : صه ! لقد ضجرت من كثرة سماعى فى كل لحظة . . .

يرما : كلا ، لا تكرر على سمعى ما يقوله الناس . إنى أرى بعينى أن هذ مستحيل . . . إن كثرة سقوط الأمطار على الأحجار يؤدى إلى تفتيتها وجعلها تنبت الفجل البرى ، الذى يقول الناس عنه إنه لا ينفع فى شىء . « الفجل البرى لا ينفع فى شىء » ، ولكنى أنا أراها تهز أزهارها الصفراء فى الهواء .

خوان : لا بد من الانتظار[1] !

يرما : نعم ؛ ونحن نحب كلانا الآخر . [يرما تحتضن زوجها وتقبله ؛ وهو يتلقاها لقاء سلبياً] .

خوان : إذا كنت تريدين شيئاً ، فقولى لى وأنا آتيك به . أنت تعلمين أننى لا أحب أن تخرجى .

يرما : أنا لا أخرج أبداً .

(١) أو : الرجاء !

خوان : أنتِ هنا أحسن .

يرما : نعم .

خوان : الشارع هو لأولئك الذين ليس عندهم شيء يشغلهم .

يرما [حزينة] : هذا واضح تماماً .

[يخرج الزوج ، وتستأنف يرما شغلها فى الحياطة ؛ تمر يدها على بطنها ، وتتمطى بلطف ، وتجلس للخياطة]

من أين تقدَّم أنت يا طفلى العزيز ؟

« من قمة البرد الشـــديد »

ماذا تود الآن يا طفلى العزيز ؟

« إنى أتوق إلى فتور نسيج ثوبك » .

[تدخل الخيط فى الابرة] .

فلترقص الأغصان فى ضوء الشموس

وعلى حفافيها تصاعيـــد العيون !

وكأنها تخاطب طفلا] :

فى الحوْش ينبح كلبُ

فى الدوح تصدح ريح

للراع ثور يخور

والبدر سرَّح شعرى

والطفل ما ذا يريد ؟ — من بعيد !

[تتوقف]

« جبلين بيضاوين فى صدر حنون »

فلترقص الأغصان فى ضوء الشموس
وعلى حفافيها تصاعيد العيون !

[وهى تخيط]

سأقول أهلا يا عزيزى
ويلى ! لأجلك كم أكابد !
بطنى يُشقّ من العذاب
فمتى ، عزيزى ، أنت قادم ؟

[تتوقف]

« لما تشمّى الياسمين »
فلترقص الأغصان فى ضوء الشموس
وعلى حفافيها تصاعيد العيون !

[تستمر يرما فى الغناء . تدخل مارية ومعها حزمة من اللابس]

يرما : من أين أنت قادمة ؟

ماريّة : من الدكان

يرما : من الدكان هكذا فى البكور ؟

مارية : لو كنت طاوعت نفسى ، لكنت انتظرت أمام الباب ساعة الفتح . احزرى ماذا اشتريت !

يرما : بُن لقهوة الإفطار ، وسكر وخبز . . .

مارية : كلا ، بل اشتريت دنتلة وثلاث أذرع من الخَيط وشرائط وصوفاً ملوناً لعمل مزيِّنات . وكان عند زوجى نقود فأعطانى إياها هو بنفسه .

يرما : هل ستعملين دُرَّاعة (بلوزة) ؟

مارية : لا ، لأنك . . . تعلمين ؟

يرما : ماذا ؟

مارية : لقد . . . وصل ! !

[تخفض رأسها . يرماً تنهض وتنظر إليها بإعجاب]

يرما : بعد خمسة أشهر !

مارية : نعم .

يرما : شَعرتِ به ؟

مارية : طبعاً .

يرما [باستطلاع لهيف] : وبماذا تشعرين ؟

مارية : لست أدرى . . . شيء من القلق .

يرما : قلق ؟ [بتلهف] لـكن . . . متى جاء ؟ . . . قولى لى . لقد كنت خالية من الهموم .

مارية : نعم ، خالية من الهموم .

يرما : ستغنِّين ، أليس كذلك ؟ أما أنا فأغنى . وأنتِ . . . قولى لى .

مارية : لا تسأليني . ألم تمسكى فى يدك طائراً حياً ذات يوم ؟

يرما : نعم .

مارية : إنه كذلك . . . لـكن فى الدم .

يرما : يا للعجب ! [تنظر إليها بذهول]

ماريا : أنا ذاهلة . لا أعرف شيئاً .

يرما : عما ذا ؟

مارية . عما يجب عليّ أن أفعله . سأسأل أمى فى هذا الشأن .

يرما : لماذا ؟ إنها عجوز ولا بد أن تكون قد نسيت هذه الأمور . لا تمشى كثيراً ؛ وإذا تنفست فينبغى عليك أن تتنفسى بهدوء وكأن بين أسنانك وردة .

مارية : اسمعى ، يقولون إنه عند النهاية يرفسك بساقه رفساً رقيقاً ناعماً .

يرما : هنالك يزداد المرء له حباً حينما يقول لنفسه : ابنى !

مارية : وفى وسط هذا كله أشعر بالخجل .

يرما : وماذا قال زوجك ؟

مارية : لا شىء .

يرما : هل يحبك كثيراً ؟

مارية : إنه لا يقول ذلك لى ، لكنه يجلس فى مواجهتى وعيناه تضطربان كأنهما ورقتان خضراوان .

يرما : هل كان يعلم أنك . . . ؟

مارية : نعم .

يرما : وكيف عرف ذلك ؟

مارية : لست أدرى . لكنه فى ليلة زفافى كان يقول لى ذلك دائماً ، وثغره على خدى ، حتى إن طفلى يبدو لى كحمام من الجمر بثه هو من خلال أذنى .

يرما : ما أسعدك !

ماريه : لـكنك تعلمين هذا خيراً مني .

يرما : وماذا يفيد ذلك ؟

ماريه : صحيـح ! ولمـاذا هذا ؟ من بين جميع لداتك المتزوجات أنت الوحيدة . . .

يرما : هو هذا . من الواضح أنه لا يزال عندى الوقت . فإن «إلينا» بقيت ثلاث سنوات ، وكثـيرات عجوزات من أيام أمى بقين أكثر من ذلك ، لـكن البقاء سنتين وعشرين يوماً مثلى — هذا انتظار طويل جداً . وأنا أعتقد أنه ليس من العدل أن أستهلك نفسى هكذا . وكثيراً ما يحدث لى أن أخرج فى الليل بقدمين عاريتين إلى الفناء لأطأ الأرض ، لماذا ؟ لست أدرى . وإذا استمر الأمر على هذا فسينتهى بى إلى السوء .

مارية : دعى هذا يا صاحبتى ! إنك تتحدثين كأنك عجوز ! ماذا أقول ؟ لا يستطيع أحد أن يشكو من هذه الأمور . إن إحدى خالاتى انتظرت أربع عشرة سنة ، ولو رأيت ابنها : إنه عجيب !

يرما [بجزع] : ماذا كان يفعل ؟

ماريه : إنه كان يبـكى كالعجـل ، بقوة ألف من الزنابير تطن معاً ؛ وكان يبول علينا ويشد منا الحصير . وحينما بلغ أربعـة أشهر كان يملأ وجوهنا بالخدوش .

يرما [ضاحكة] : لـكن هذا لا يؤلم .

ماريّة : أوه !

يرما : لا ! لقد رأيت أختى تعطى ابنها ثدياً مليئاً بالخدوش ؛ لقد كانت تتألم كثيراً ، لـكن ألمها كان نضراً ، حسناً ، وضرورياً للصحة .

مارية : يقولون إن المرء يتعذب كثيراً مع أولاده .

يرما : كذب ! هذا ما تقوله الأمهات الخرائع الكثيرات التشكى . لماذا يلدن إذاً ؟ إن امتلاك طفل ليس كامتلاك طاقة من الورد . بل يجب أن نتعذب حتى نراهم يكبرون . وأعتقد أننا نفقد نصف دمائنا . لكن هذا حسن ، صحّى ، جميل . إن كل النساء لديهن من الدم ما يكفى لأربعة أولاد أو خمسة ، فإذا لم يجيئوا كان ذلك الدم سُماً لهن ، كما هى حالى أنا .

مارية : لست أعلم ما عندى أنا .

يرما : سمعت دائماً أن الحمل لأول مرة يبعث الجزع .

ماريّة [باستحياء] : سنرى . . . إنك تخيطين جيداً .

يرما (ممسكة بالحزمة) : هاتِ . سأفصل لك ثوبين صغيرين . وهذا ؟

مارية : هذه لفائف وليد .

يرما : حسناً . (تجلس)

ماريّة : إذاً . . . إلى اللقاء (تقترب ، ويرما تتحسس بيديها بطنها فى شغف)

يرما : لا تجرى على حجارة الطريق .

مارية : وداعاً ! (تقبلها وتخرج)

يرما : عودى سريعاً .

(يرما تظل على وضعها الأول . تأخذ المقص وتبدأ تقص . ويدخل ڤكتور)

صُبحت بخير يا ڤكتور .

ڤكتور : (يفكر تفكيراً عميقاً وفى وجهه سيما الجد) : وخوان ؟

يرما : إنه فى الحقل .

ڤـكتور : ما ذا تخيطين ؟

يرما : أخيط لفائف وليد .

ڤـكتور [باسماً] : إيه !

يرما [ضاحكة] : سأحيطها بدنتلة .

ڤـكتور : إذا كانت بنتاً ، فهل تسمينها باسمك ؟

يرما [مضطربة] : كيف ؟

ڤـكتور : أنا سعيد لأجلك .

يرما (وقد اختنق صوتها) : كلا . . . إنه ليس من أجلي ، بل من أجل ابن ماريّة .

ڤـكتور : حسناً ، لعل هذه تكون قدوة لك ! إن هذا البيت ينقصه ولد .

يرما (جزعة) : ينقص ولد !

ڤـكتور : ما علينا . على كل حال قولي لزوجك أن يقلل من التفكير في الشغل . هو يريد جمع المال ، وسيجمع مالا ؛ لكن لمن سيتركه إذا ما توفى ؟ — أنا ذاهب الآن مع الأغنام . قولي لخوان أن يحضر لأخذ النعجتين اللتين اشتراهما ، وفيما عدا هذا فليعتمق[1] !

[يغدو باسماً]

يرما (بحرارة) :

إيه ! أجل : فليعتمق

---

(١) يقصد : فليتعمق مع زوجه .

سأقول أهلا يا عزيزى

ويلى ! لأجلك كم أكابد !

بطنى بُشقّ من العذاب

بطنى السرير الأول

فمتى ، عزيزى ، أنت قادم ؟

« لما تشمى الياسمين » .

[يرما تنهض مفكرة ، وتجرى إلى المكان الذى كان فيه فكتور وتستنشق الهواء بعنف وكأنها تستنشق هواء الجبل ؛ ثم تغدو إلى الطرف الآخر من الحجرة وتبدو كأنها تبحث عن شىء ، ثم تعود لتجلس وتستأنف خياطتها . تبدأ الخياطة وتظل ثابتة العينين على غرزة]

ســــتار

اللوحة الثانية

(فى الحقل . يرما وهى تحمل سلة . تدخل وثنية عجوز)

يرما : صباح الخير .

الوثنية العجوز : صباح الخير عليك يا ابنتى الجميلة ! إلى أين أنت ذاهبة ؟

يرما : لقد كنت أحمل الطعام لزوجى الذى يشتغل فى حقل الزيتون .

الوثنية العجوز : هل أنت متزوجة من زمن بعيد ؟

يرما : من ثلاث سنوات .

الوثنية العجوز : هل لك أولاد ؟

يرما : كلا .

الوثنية العجوز : آه ! سيكون لك أولاد !

يرما : (بشغف) : تعتقدين ؟

الوثنية العجوز : ولِمَ لا ؟ (تجلس) وأنا أيضاً كنت أحمل الطعام لزوجى . إنه شيخ هرم ، ولـكنه لا يزال يشتغل . وعندى تسعة شموس ، ليس من بينهم بنت . ولهذا ترينى أجرى من هنا إلى هناك .

يرما : هل تسكنين فى الناحية الأخرى من النهر ؟

الوثنية العجوز : نعم : الطاحونة . وأنت من أية أسرة ؟

يرما : أنا بنت أنريك الراعى .

الوثنية العجوز : آه ! إنريك الراعى . كنت أعرفه . رجل طيب : ينهض

مبكراً ، ويعرق ، ويأكل قليلا من الخبز ، ثم يموت . دون أية تسلية أو ترفيه . لاشيء . والأعياد لغيره . مخلوقات صامتة . لقد كان من الممكن أن أتزوج أحد أعمامك .

لكن ! كنتُ امرأة تنورتها فى الهواء ، أحبّ شرائح الشمام والأعياد والفطائر المسكرة . وما أكثر المرات التى كنت فيها أتطلع من الباب عند الفجر وأنا أحسب أنى أسمع موسيقى البندورية غادية ورائحة ، ولكنها كانت فى الواقع أصوات الريح .

(تضحك) . ستضحكين منى . لقد كان لى زوجان ، ورزقت بأربعة عشر طفلا ، مات منهم خمسة ، ومع ذلك فأنا لست حزينة ، وأود أن أعيش مدة أطول كثيراً .

والأمر كما أقول : انظرى إلى أشجار التين ، كم تعمَّر ! والبيوت ! ليس غيرنا نحن معشر النساء ، هن اللواتى يَقضى عليهن أى شىء!

يرما : أود أن أسألك سؤالا .

الوثنية العجوز : ماذا ؟ (تنظر إليها) أنا أحزر ما ستقولينه . هذه أمور لا يمكن التحدث عنها . (تنهض)

يرما (وقد أوقفت العجوز) : ولم لا ؟ إن هذا شجعنى على سماعك .

منذ وقت طويل وأنا أرغب فى التحدث إلى امرأة مسنة . لأنى أريد أن أعرف . نعم ! ستقولين لى ...

الوثنية العجوز : ماذا ؟

يرما (بصوت خفيض) : أنت تعرفين . لماذا أنا عقيم ؟ هل قُدِّر علىَّ أن

أعيش للعناية بالطيور ، وكى الستائر ووضعها فى النوافذ ؟ كلا . عليك أن تخبرينى بما يجب علىّ أن أفعله ، سأعمل أى شىء ، حتى لو كان علىّ أن أغرز إبراً فى حدقة عينى .

الوثنية العجوز : أنا ؟ أنا لا أعرف شيئاً . لقد رقدت على ظهرى وأنشأت فى الغناء . وأتى الأولاد كالأمواج . وآأسفاه ! من ذا يستطيع أن يقول إن جسمك ليس جميلا ؟ أنت تمشين ، وفى نهاية الشارع يصهل الفرس . وآأسفاه ! دعينى يا ابنتى ، ولا تجعلينى أتكلم . إنه لتخطر ببالى أفكار كثيرة لا أريد أن أفصح عنها .

يرما : لماذا ؟ أنا مع زوجى لا أتحدث عن شىء آخر .

الوثنية العجوز : اسمعى . هل يعجبك زوجك ؟

يرما : كيف ؟

الوثنية العجوز : أعنى : هل تحبينه ؟ هل تشتاقين أن تكونى معه ...؟

يرما : لست أدرى .

الوثنية العجوز : هل ترتجفين حينما يقترب منك ؟ وحينما يقرّب شفتيه منك ، ألا تشعرين بأنك فى حلم ؟ قولى لى .

يرما : كلا ، لم أشعر أبداً بشىء من هذا .

الوثنية العجوز : أبداً ؟ حتى لو رقصت ؟

يرما (وهى تتذكر) : يجوز ... ذات مرة ... فكتور...

الوثنية العجوز : استمرّى !

يرما : فكتور طوقنى من خصرى ولم أقل له شيئاً لأنى عجزت عن

الـكلام . ومرة أخرى : ڤكتور نفسه ، وكانت سنى آنذاك أربع عشرة سنة وهو كان شابا ، أمسك بى بين ذراعيه لنقفز على حفرة ، وبدأت أرتجف وبدأت أسنانى تصطك . لـكن ذلك كان من الخجل .

الوثنية العجوز : ومع زوجك ...

يرما : زوجى شىء آخر . والدى أعطانى إياه فأخذته . بسرور . هذه هى الحقيقة المحضة . لـكن ، فى نفس اليوم الذى أصبحت فيه زوجة له كنت أفـكر فى الأولاد ... وكنت أتطلع إلى نفسى فى مرآة عينيه ، فرأيت نفسى صغيرة جداً لينة العريكة جداً ، كأنى أنا بنت نفسى .

الوثنية العجوز : على العكس منى تماماً . ولعل هذا هو السبب فى أنك لم تحملى فى الوقت المناسب . إن الرجال يجب أن يُعْـجبونا ، يا بنيتى . ويجب أن يحـُلّوا ضفائرنا ويجعلونا نشرب الماء من أفواههم . هكذا تسير الدنيا .

يرما : دنياك أنت ، لا دنياى أنا . إنى أفـكر فى أمور كثيرة ، كثيرة كثيرة جداً ، وأنا واثقة أن الأمور التى أفـكر فيهـا سيحققها ابنى . إنى من أجله كنت أسلم نفسى لزوجى ، وأنا أستمر فى ذلك لأرى إذا كان سيجىء هذا الولد ، ولا أفعل ذلك أبداً من أجل لذتى .

الوثنية العجوز : والنتيجة هى أنك خاوية !

يرما : خاوية ، كلا ، لأنى مليئة بالـكراهية . قولى لى : هل هذا ذنبى ؟ هل يجب أن لا تبحث المرأة فى الرجل عن شىء آخر غير الرجل ، لا أكثر ؟

لـكن ، ماذا تظنين حينما يتركك فى السرير بعينيك الحزينتين تنظران إلى السقف ، بينما يتقلب هو على جنبيه ويأخذ فى النعاس ؟ هل يجب الاستمرار فى التفكير فيه أو التفكير فيمن سيخرج وضيئاً من بطنى ؟ أنا لا أعرف ، لـكنك أنت قولى لى ، أرجوك ! (تركع أمامها) .

الوثنية العجوز : آه ! يا لك من زهرة متفتحة ! يا لك من مخلوقة جميلة ! دعيني . لا تجعليني أتكلم بعدُ . لست أريد أن أتكلم معك أكثر مما فعلت . هذه مسائل شرف ، وأنا لا أريد أن أحرق شرف أحد . ستعلمين . وعلى كل حال فينبغي أن تكونى أقل براءة .

يرما (حزينة) : إن الفتيات اللواتى ينشأن فى الحقول ، مثلى ، يعشن داخل أبواب مغلقة . وكل ماهنالك تلميحات وإشارات ، لأنهم يقولون إنه من الممنوع معرفة هذه الأمور . وأنت أيضاً تسكتين وتنصرفين عنى وعليك سيماء العليمة ببواطن الأمور ، تعرفين كل شىء ، لكنك ترفضين أن تقولى شيئاً لتلك التى تموت عطشاً .

الوثنية العجوز : مع امرأة أخرى هادئة كنت أتكلم . أما معك ، فلا . إنى عجوز هرمة ، وأنا أعرف جيداً ماأقوله .

يرما : إذن ، اللهم احفظنى .

الوثنية العجوز : الله ، كلا . إن الله لم يعجبنى أبداً . متى تفهمين أنه غير موجود ؟ إن الرجال هم الذين يحمونك .

يرما : لكن لماذا تقولين لى هذا ، لماذا ؟

الوثنية العجوز (وهى تنصرف) : ومع ذلك فلابد من إله ، حتى لو كان صغيراً جداً ، من أجل توجيه صواعقه ضد الناس ذوى البذور العفنة الذين يغرقون بهجة الحقول .

يرما : لا أفهم ماذا تقصدين .

الوثنية العجوز : حسناً ، أنا فاهمة. لا تحزنى . تعلقى بأهداب الأمل .

أنت لا تزالين فى ريعان الشباب . ماذا تريدين أن أعمل ، أنا ؟ .

(تنصرف . تظهر فتاتان)

الفتاة الأولى : فى كل مكان سنجد ناساً .

يرما : الموسم موسم العمل ، والناس يشتغلون فى مزارع الزيتون ، ولابد أن نحضر لهم الطعام . ولا يبقى فى البيوت غير العجائز .

الفتاة الثانية : هل أنت عائدة إلى القرية ؟

يرما : أنا ذاهبة إلى هناك .

الفتاة الأولى : أنا فى عجلة . لقد تركت ولدى الصغير نائماً ، ولا أحد فى البيت .

يرما : إذن عجلى يا امرأة . لا يمكن ترك الأولاد وحدهم . هل فى بيتك خنازير ؟

الفتاة الأولى : لا . لكن أنت على صواب . أنا ذاهبة بسرعة .

يرما : اذهبى! هكذا تمضى الأمور. من المؤكد أنك تركته مغلقاً عليه .

الفتاة الأولى : طبعاً .

يرما : نعم ، ولكنكما لا تعرفان ما معنى الطفل الصغير . إن أقل الأشياء ضرراً يمكن أن يقضى عليه : إبرة صغيرة ، شربة ماء .

الفتاة الأولى : أنت على حق . سأجرى . إنى لا أفكر كثيراً فى مثل هذه المسائل .

يرما : إذهبى .

الفتاة الثانية : لو كان عندك أربعة أو خمسة أولاد ، ما كنت تتكلمين هكذا .

يرما : لماذا ؟ حتى لو كان عندى أربعون .

الفتاة الثانية . على كل حال كلتانا أهدأ بالاً لأنه ليس لدينا أولاد

يرما : أما أنا ، فلا .

الفتاة الثانية : وأنا نعم . يا له من هم ! وعلى العكس ، أمى لا تفتأ تحملنى على تعاطى الأعشاب كى أستطيع الحمل ، وفى شهر أكتوبر سنذهب للقديس الذى يقال إنه يهب القدرة على الحمل للواتى يدعونه بإلحاح وحماسة . وأمى هى التى ستدعوه ، أما أنا فلا .

يرما : لماذا تزوجت إذن ؟

الفتاة الثانية : لأنهم زوجونى . الكل يتزوجن . وإذا استمر الأمر على هذا النحو ، فلن يكون هناك عزباوات غير الصغيرات . ثم إنك تعلمين . . . كثيراً ما يقع الزواج قبل المرور بمراسم الكنيسة بمدة طويلة . لكن العجائز يشغلن أنفسهن بكل هذه الأمور . أما أنا فعمرى تسع عشرة سنة ، وأنا لا أحب الغسل ولا الطبخ . ومع ذلك فإنه يجب علىّ أن أعمل ما لا يعجبنى . ولماذا ؟ أية ضرورة فى كون زوجى يجب أن يكون زوجى ؟ ما دمنا ، ونحن مخطوبان ، كنا نفعل كل ما نفعله الآن ونحن متزوجان . كل هذه حماقات عجائز .

يرما : اسكتى ، لا تقولى هذه الأشياء .

الفتاة الثانية : وأنت أيضاً قولى عنى إنى مجنونة . المجنونة ! المجنونة ! (تضحك) إنى أقول لك الشىء الوحيد الذى تعلمته فى الحياة : كل إنسان يعمل فى بيته مكرهاً . وأحسن من هذا الجرى فى الشارع ! أجرى إلى الجدول ، وأصعد البرج لدق النواقيس ، وأشرب مرطباً من الينسون .

يرما : أنت طفلة .

الفتاة الثانية : صحيح ، ولكنى لست مجنونة . (تضحك) .

يرما : إن أمك تسكن فى أعلى بيت فى القرية ؟

الفتاة الثانية : نعم .

يرما : فى آخر بيت ؟

الفتاة الثانية : نعم .

يرما : ما اسمها ؟

الفتاة الثانية : دولوريس . لماذا ؟

يرما : ولا حاجة .

الفتاة الثانية : هل تسألين لسبب ؟

يرما : لست أدرى ... هذا كلام ...

الفتاة الثانية : ليكن . انظرى ، أنا ذاهبة لحمل الطعام إلى زوجى (تضحك) وآ أسفاه أنى لا أستطيع أن أقول : إلى خطيبى ، أليس كذلك ؟ (تضحك) . هاهى ذى المجنونة سائرة ! (تمضى وهى تضحك فى مرح) . وداعاً !

صوت فكتور (وهو يغنى) :

أيها الراعى لماذا ترقد الآن وحيداً ؟
أيها الراعى لماذا ترقد الآن وحيداً ؟
تحت أصواف سريرى مرقدٌ أدفا وأهنا
أيها الراعى لماذا ترقد الآن وحيداً ؟

يرما (تصغى) :

أيهـا الراعى لمـاذا ∴ ترقد الآن وحيداً ؟
تحت أصواف سريرى ∴ مرقـد أدفا وأهنـا
أيهـا الراعى بماذا تتغطى

بحجر

أيهـا الراعى بماذا تتغطى

بصقيع

إن فى ليـل سريرك ∴ غبّر خضر الشتاء
شجر البلوط يلقى بالإبر ∴ أيهـا الراعى ، بأحشاء الوسادة
وإذا تسمع صوتاً لفتـاة ∴ فهو النهر بصوت هـادر
أيهـا الراعى أجبنى ما الذى ∴ منك هذا الجبل العـالى يزيد ؟
جبـل يزخر بالعشب المرير ∴ أى طفل ، أيها الراعى ، يميتك ؟
إنه شـوك الرتم !

(تتأهب للخروج فتصطدم بڤـكتور داخلاً)

ڤـكتور (مبتهجاً) : إلى أين يغدو الجميل ؟

يرما : أأنت الذى كنت تغنى ؟

ڤـكتور : نعم أنا .

يرما : ما أحسنه ! إنى لم أسمعك تغنى من قبل .

ڤـكتور : صحيح ؟

يرما : وصوتك ما أقواه ! كأن نافورة ماء تملأ فاك كله .

ڤـكتور : أنا مبسوط .

يرما : حقاً ؟

ڤـكتور : بقدر ما أنت حزينة .

يرما : إنى لست حزينة ، لـكن عندى من الدواعى ما يبرر ذلك الآن .

ڤـكتور : وزوجك أشد منك حزناً .

يرما : هو ، نعم . إن خلقه جاف .

ڤـكتور ؛ لقد كان دائماً هكذا . (وقفة . يرما تجلس) لقـــد أتيتِ حاملةً الغداء ؟

يرما : نعم . (تنظر إليه . وقفة) ماذا عندك هاهنا ؟ (وتشير إلى وجهه) .

ڤـكتور : أين ؟

يرما (تنهض وتقترب من ڤـكتور) — هنا . . . على خدك شيء يشبه الحروق .

ڤـكتور : هذا لا شيء .

يرما : ظننت ... (وقفة)

ڤـكتور : لابد أن الشمس ...

يرما : ربما ... (وقفة)

(يزداد الصمت وبدون أية حركة يقع صراع صامت بين كلا الشخصين)

يرما (وهى ترتعـد) : أتسمع ؟

ڤـكتور : ماذا ؟

يرما : ألا تسمع أحداً يبكى ؟

ڤـكتور (يتسمع) : كلا .

يرما : خيل إلىّ أن طفلا يبكى .

ڤـكتور : صحيح ؟

يرما : نعم بالقرب منا . وتنهدات مختنقة .

ڤـكتور : إنه يمر بالقرب من هنا كثير من الأطفـال الذين يأتون لسرقة الفاكهة .

يرما : كلا ، إنه صوت طفل صغير . (وقفة)

ڤـكتور : إنى لا أسمع شيئاً .

يرما : سأكون إذن واهمة . (تتأمله بثبات ؛ وڤـكتور هو الآخر ينظر إليها ثم يصرف بصره عنها ببطء كأنه خائف . يأتى خوان)

خوان : ماذا تفعلين بَعْدُ ها هنا ؟

يرما : كنت أتحدث .

ڤـكتور : سلام عليك . (ينصرف)

خوان : كان يجب أن تكونى فى البيت .

يرما : كنت أُسلِّى نفسى .

خوان : لا أرى ما ذا عساه سلاك .

يرما : كنت أستمع إلى غناء الطير .

خوان : حسناً . وهكذا تجعلين الناس يتحدثون فى شأنك .

يرما (بقوة) : خوان ، ماذا تظن ؟

خوان : لا أقول ذلك عنك ، بل عن الناس .

يرما : فليذهبوا إلى الشيطان .

خوان : لا تسبى ، فهذا يقبح بالنساء .

يرما : ياليتنى كنت امرأة !

خوان : فلنكف عن الحديث . ولتعودى إلى البيت (وقفة)

يرما : حسناً — هل أنتظرك ؟

خوان : لا ، لأنى سأروى طول الليل ، إذ الماء الآتى قليل ، ودورى حتى مطلع الشمس ، وعلىّ أن أذود عنه اللصوص . فاذهبى ونامى .

يرما : (بطريقة مؤثرة) : سأنام ! (تخرج) .

نهاية الفصل الأول

الفصل الثانى

اللوحة الأولى

(غناء والستائر مسدلة. — سيل فيه تغسل نساء القرية . الغاسلات فى مستويات مختلفة)

غناء :

فى جـــدول مبترد .·. كنـا غسلنا الشريط
فى المـــاء يَبْسِمُ يُرى .·. كاليـــاسمين احـترق

الغاسلة الأولى : أنا لا أحب الانتقاد .

الغاسلة الثالثة : لـكنا ها هنا ننتقد .

الغاسلة الرابعة : ولا خير فى هذا .

الغاسلة الخامسة : إن التى تتعلق بالشرف ينبغى لها أن تقتنيه

الغاسلة الرابعة :

قد غَرَسْتُ الصَّعْـترا .·. ثم أبصرت الثمـــا
إن من يَبْغِ الشرف .·. يلتزمْ حـد الأدب

(يتضاحـكن)

الغاسلة الخامسة : هكذا الـكلام !

الغاسلة الأولى : لـكن ويا للأسف لا يعرف المرء شيئاً .

الغاسلة الرابعة : هناك أمر أكيد ،وهو أن الزوج أتى بأختيه لتسكنا معهما .

الغاسلة الخامسة : العَـزَبتان ؟

الغاسلة الرابعة : نعم ! إن اللتين كانتا تسهران على حراسة الـكنيسة ستسهران منذ الآن على زوجة أخيهما .

الغاسلة الأولى : ولماذا ؟

الغاسلة الرابعة : لأنهما يثيران الفزع . إنهما تشبهان تلك الأوراق الضخمة التى تنمو فجأة على المقابر . إنهما مدهونتان بالشمـــع ، مدهونتان بالشمع حتى أحشائهما . ويخيل إلى المرء أنهما يطبخان بزيت القناديل .

الغاسلة الثالثـــة : وهل وصلتا ؟

« الرابعة : منذ الأمس . والزوج سيذهب من جديد إلى أرضه .

« الأولى : هل يمكن معرفة ما حدث ؟

« الخامسة : فى مساء أمس الأول ، كانت تجلس على العتبة رغم البرد .

« الأولى : ولـكن ، لماذا ؟

« الرابعة . إنها متضايقة من البيت .

« الخامسة : هكذا أمر هؤلاء النسوة العقيمات ! بدلا من الاشـتغال بعمل الدنتلة أو مربَّى التفاح ، يلذ لهن الصعود إلى السطح والمشى حافيات فى جداول مثل هذا الجدول .

الغاسلة الأولى : من أنت حتى تقولى هذا الـكلام ؟ ليس عندها أولاد ، ولـكن هذه ليست غلطتها .

الغاسلة الرابعة : إن التى تريد أن يكون عندها أولاد ، تستطيع أن يكون لها أولاد . لـكن الرقيقات الضعيفات السكريات لم يخلقن لتكون بطونهن ذوات ثنايا وطوايا . (يتضاحكن)

الغاسلة الثالثة : إنهن يضعن الأبيض والأحمر ويرشقن فى شعورهن أغصان الدِّفْلى إغراءً لفتى ليس زوجهن .

الغاسلة الخامسة : ليس هناك أى سبب غير هذا .

الغاسلة الأولى : لكن هل رأيتُنَّها مع شخص آخر ؟

« الرابعة : كلا نحن لم نرها ، ولكن غيرنا رأوها .

« الأولى : دائماً الغير !

« الخامسة : يقولون إنهم رأوها مرتين .

« الثانية : وماذا كانا يفعلان ؟

« الرابعة : كانا يتحدثان .

« الأولى : إن الكلام ليس خطيئة .

« الرابعة : فى الدنيا شيء اسمه النظرة . كانت أمى تقول ذلك . إن المرأة التى تنظر إلى ورد غير المرأة التى تنظر إلى عضلات رجل . إنها تنظر إليه .

الغاسلة الأولى : لكن ، من هو ؟

« الرابعة : رجل ، أنت سامعة ؟ اسألى واستفهمى . هل تريدين أن أذكر اسمه بصوت عالٍ ؟ (ضحكات) . وحتى إذا لم تنظر إليه لأنها وحدها ، وليس أمامها ، فإنها تحمله فى عينيها .

الغاسلة الأولى : هذا كذب !

ضجة

الغاسلة الخامسة : والزوج ؟

الغاسلة الثانية : الزوج ! يبدو أ ن الزوج أطرش . إنه متبلّد الإحساس كالسحلية فى الشمس . (يتضاحكن)

« الأولى : لوكان عندها أولاد لا نصلح الحال .

« الثانية : هذا شأن الناس الذين لا يرضون بما قدر لهم .

« الرابعة : كل ساعة تمر تزيد فى لهيب نار هـذا البيت . وهى والأختان لا تنفرج لهن شفة ، ويقضين النهار فى تبييض الجدران وتلميع النحاس وتنظيف ألواح الزجاج بالبخار ، ووضع الزيت فى المصابيح ؛ لكن البيت كلما لمع ازداد الحريق فى داخله .

الغاسلة الأولى : إن الذنب ذنبه هو ؛ فإن الزوج حينما لا يعطى أولاداً يجب عليه أن يراقب زوجته .

الغاسلة الرابعة : إن الذنب ذنبها هى ، إن لسانها مثل الحصوة .

« الأولى : أى شيطان استولى على شعرك حتى تتكلمى هكذا ؟

« الرابعة : ومن سمح لك بفتح فمك لتلقى بالمواعظ ؟

« الثانية : اخرسا .

« الأولى : بودى لو خِطْتُ الألسنة المسمومة بإبرة تريكو .

« الثانية : اسكتى .

« الرابعة : وبودى أنا لو خِطْتُ حلمات أثداء المنافقات !

« الثانية : سكوت ! أولا ترين الأختين قادمتين هاهنا !

(همهمة . تدخل أختا الزوج . إنهما ترتديان ثياب الحداد . ويبدآن فى الغسل وسط السكون . تسمع أصوات جلاجل)

الغاسلة الأولى : هل الرعاة ذاهبون ؟

الغاسلة الثالثة : نعم ، الآن تخرج كل القطعان .

الغاسلة الرابعة (وهى تشهق) : إنى أحب رائحة النعاج .

الغاسلة الثالثة : صحيح .

الغاسلة الرابعة : ولم لا ؟ رائحة ما يملكه المرء . كذلك أحب رائحة الطين الأحمر الذى يسوقه النهر فى الشتاء .

الغاسلة الثالثة : أمزجة !

الغاسلة الخامسة : (وهى تنظر) . إن القطعان تسير معاً .

الغاسلة الرابعة : إنها طوفان من الصوف ، إنها تحطم كل شيء . ولو كان للقمح الأخضر رأس ، لارتعدت وهى تراها تقترب .

الغاسلة الثالثة : انظرى كيف تجرى ! يا له من قطيع كله أعداء !

الغاسلة الأولى : لقد خرجت كلها ، ولا تنقص واحدة .

الغاسلة الرابعة : كلا ، بل تنقص واحدة .

« الخامسة : ما هى ؟

« الرابعة : نعجة فكتور . (تنهض الأختان وتنظران)

فى جـــدول مبترد
كنا غسلنا الشريط
فى الماء بَسْمٌ يُرى
كالياسمـــين احترق
إنى أود البقـــــا
فى ثلجـــــــه المستوى

الغاسلة الأولى :

لهفى عـــــلى زوجة
بالعقم قـــــد تبتلى

الغاسلة الخامسة :

خبرينى هل يصون الزوج بذره ؟
هل يغنى الماء فى جوف قميصك ؟

الغاسلة الرابعة :

هل شبيه الزورق الفضى والريح على الشط — قميصك ؟

الغاسلة الأولى :

أتيت أغســـل ثوباً
لابنى الحبيب المفـــدىّ
إن المياه تغـــــار
من فضل رونق ثوبه

الغاسلة الثانية :

من الجبـــــال يعود
زوجى ليطعم لقمـــه
يجيـــــؤنى بورود
أعطى ثلاثاً بوردة

الغاسلة الخامسة :

من السهـــــول يجىء
زوجى لنول العشاء
يأتى إلىّ بجمــــــرٍ
فيه الرياحين تفعو

الغاسلة الرابعة :

بين النسيم العليــــــــل
يأتى لينعس زوجى
إلى القرنفـل الاحمر
وهو القرنفـل أحمر

الغاسلة الأولى :

فليُـضم الزهر للزهر إذا
شرب الصيف دماء الزارعـين

...

الغاسلة الرابعة :

ولـتُـشَقّ البطن فى طير الليالى
والشتا يقرع أبواب البيوت

الغاسلة الأولى :

فى السرير الأنــــــين

الغاسلة الرابعة :

بل غناءٌ فى غـــــــاء

الغاسلة الخامسة :

حينما يقــــدم زوجى
حاملا تاجاً وخبزاً

الغاسلة الرابعة :

ولأن الأذرع تتعانق

الغاسلة الثانية :

ولأن النور فى الحلق تلظّى

الغاسلة الرابعة :

ولأن الجذع فى الغصن يرقّ

الغاسلة الأولى :

وخيام الريح غطت ذى الجبال

الغاسلة السادسة (تظهر عند أعلى السيل) :

ليمصّ الطفل بلور الشروق

الغاسلة الأولى :

ويغطى جسمنا المرجان ثائر

الغاسلة السادسة :

وعلى موج البحـــــار
يَجْـدِف المـــــلاح

الغاسلة الأولى :

طفــل صغـير لطيف

الغاسلة الثانية :

تفتح الورقاء منقاراً وُجنحاً

الغاسلة الثالثة :

طفل يئنُّ ، وليدُ

الغاسلة الرابعة :

والناس تَقدَمُ كالوعول بها جراح

الغاسلة الخامسة :

هللو يا ! هللو يا ! هللو يا !
هللوا للبطن تحت الثوب تنمو

الغاسلة الثانية :

هللو يا ! هللو يا ! هللو يا !
هللوا للسرة ، الكأس العجيبة

الغاسلة الأولى :

آه ! إيْ تعساً لعاقر
ثديها كالرمل صافر

الغاسلة الثالثة :

فلتضيء !

الغاسلة الثانية :

فلتَنْجرِ !

الغاسلة الخامسة :

فلتضيء من جديد !

الغاسلة الأولى :

فلتغنِّ !

الغاسلة الثانية :

فلتستتر !

الغاسلة الأولى :

ولتغنِّ من جديد !

الغاسلة السادسة :

ابنى يشد الفجر فوق المِدعه

الغاسلة الثانية : (والكل يغنين معاً)

فى جـــــدول مبترد
كنا غسلنا الشريط
فى المـاء بسم يرى
كالياسمين احــــترق
آه ! آه ! آه !

(يحركن الغسيل فى إيقاع ويقرعنه)

ســــــتار

اللوحة الثانية

(بيت يرما . فى ساعة العصر . خوان جالس . أختاه واقفتان)

خوان : تقولين إنها خرجت منذ قليل ؟ (تجيب الأخت الكبرى نعم بحركة من رأسها) لابد أنها عند العين . لكنكما تعلمان أنني لا أحب أن تخرج وحدها . [وقفة] . أعدى المائدة . (تخرج الأخت الصغرى) . إن الخبز الذى أكسبه حلال . (لأخته) إن نهار الأمس كان أليماً شاقاً . شذبت أشجار التفاح وقرب المساء كنت أقول لنفسى : لماذا أبذل كل هذا الجهد فى الشغل ، إذا لم يكن لى حق فى تناول تفاحة ؟ عيل صبرى . (يمسح بكفه على وجهه . وقفة) وتلك التى لا تأتى ... كان على إحدا كما أن ترافقها ، إنكما ها هنا من أجل ذلك ومن أجله تأكلان من طعامى وتشربان من نبيذى . إن حياتى فى الحقول ، لكن شرفى ها هنا . وشرفى هو شرفكما أنتما أيضاً . (الأخت تخفض رأسها) لا تغضبى من هذا الكلام .

(تدخل يرما وفى يديها جرتان . تقف على الباب بلا حراك)

هل أنت قادمة من العين ؟

يرما : لإحضار ماء منعش لشربه أثناء الأكل .

(تخرج الأخت الأخرى)

كيف حال الزراعة ؟

خوان : بالأمس شذبت الأشجار .

(يرما تضع الجرتين . وقفة)

يرما : هل ستمكث معنا ؟

خوان : عليّ أن أعنى بالبهائم . إنها للمالك ، كما تعلمين .

يرما : أعلم ذلك تماماً ؛ فلا تكرره .

خوان : كل إنسان على قدر حاله .

يرما : وكل امرأة وما قدر لها . إنى لا أطلب منك البقاء ، فعندى كل ما أنا فى حاجة إليه . وأختاك تحرسانى جيداً . وأنا آكل ها هنا خبزاً طازجاً ، وجبناً أبيض ، ومن أصناف الحمر ، وماشيتك فى الجبل مرعاها وافر الندى . وأعتقد أنك تستطيع أن تعيش فى سلام .

خوان : للعيش فى سلام ، لابد أن يكون المرء هادئاً .

يرما : وأنت لست كذلك ؟

خوان : كلا .

يرما : إذن غير أفكارك .

خوان : ألا تعرفين طبعى ؟ النعاج فى الحظيرة ، والنساء فى البيوت . وأنت تخرجين كثيراً جداً . ألم تسمعينى أقول لك ذلك مراراً ؟

يرما : هذا حق . النساء فى بيوتهن ، إذا لم تكن بيوتهن قبوراً ، وحينما تنكسر الكراسى ، والمفارش تنسل من الاستعمال . لكن ها هنا ، لا . ففى كل ليلة ، أجد سريرى أكثر جدة ورونقاً وكأنه اشترى من المدينة فوراً .

خوان : أنت تعترفين بنفسك أن عندى دواعى للشكوى ! وأن عندى أسباباً لأفتح عينى !

يرما : تفتح عينيك ، لماذا ؟ إنى لا أسيء إليك فى شيء . وقد أسلمت

إليك قيادى ، وما أعانيه احتفظ به فى أحشائى . وكل يوم يمضى يزداد سوءاً . فلنسكت . إنى أستطيع حمل عذابى ما استطعت إلى ذلك سبيلا ، لكن لا تطلب منى شيئاً . ولو استطعت أن أصبح على الفور عجوزاً ، وكان فمى كالزهرة الممزقة فنى وسعى أن أبتسم لك وأحتمل الحياة معك . والآن ، الآن دعنى وحدى مع عذابى .

خوان : لا أفهم ما تقولين . إنى لا أحرمك من شىء ، بل أرسل فى طلب كل ما يسرك إلى القرى المجاورة . صحيح أن فىّ عيوباً ، ولكنى أريد أن أعيش فى هدوء معك وسلام ، وأود لو استطعت أن أنام هناك ، واثقاً أنك تنامين فى البيت نوماً هادئاً .

يرما : لكنى لا أنام ، لا أستطيع أن أنام .

خوان : هل ينقصك شىء ؟ قولى لى . أجيبى !

يرما : (عن قصد وهى تحدق فى زوجها) : نعم ، ينقصنى شىء . [وقفة]

خوان : دائماً نفس الشىء . وها قد مرت خمس سنوات . لقد كدت أنساه .

يرما : لكنى أنا لست مثلك . إن للرجال حياتهم : الماشية ، والأشجار والأحاديث . أما نحن النساء فليس لنا غير الأولاد والعناية بالأولاد .

خوان : ليس الناس جميعهم مثل بعضهم . لماذا لا تبعثين فى طلب واحد من أولاد أخيك ؟ لا اعتراض لى على هذا .

يرما : إنى لا أريد أن أعنى بأولاد غيرى . ويخيل إلىّ أن ذراعىّ ستجمدان إذا ما أخذتهم بين ذراعىّ .

خوان : هذه حجة جيدة لتعيشى تائهة وتهملى واجباتك . وأنت تركبين رأسك ، وتعتدين عناد الصخرة .

يرما : صخرة من العار أن تكون صخرة بينما كان ينبغى أن تكون سلة من الأزهار والماء القراح .

خوان : إنى لا أشعر وأنا إلى جوارك إلا بالقلق والجزع . وعلى كل حال فينبغى عليك أن تستسلمى .

يرما : لقد قدمت إلى هذه الجدران الأربعة كيلا أستسلم . وأنا لن أستسلم إلا إذا ربطوا رأسى بمنديل يمنعنى من أن أفتح فمى ، ووضعوا يدى فى النعش ، هنالك فقط أستسلم .

خوان : وإذن ما ذا تريدين أن تفعلى ؟

يرما : أريد أن أشرب ماء ، حيث لا كوب ولا ماء ، وأريد أن أتسلق الجبل وليس لى أقدام ، ، وأريد أن أطرز تنورتى ولا أجد خيوطاً .

خوان . الواقع أنك لست امرأة صريحة صادقة ، وأنك تسعين لتدمير رجل لا إرادة له .

يرما : لا أعرف من أنا . دعنى أسلك سبيلى وأنفس عن نفسى . وأنا لم أتخلف عن الاستجابة إليك .

خوان : أنا لا أريد أن يشير إلىَّ الناس بأصابعهم . ولهذا أريد إغلاق هذا الباب وأن يلتزم كلٌّ بيته .

(تخرج الأخت الكبرى وببطء وتقترب من الخزانة)

يرما : إن التحدث مع الناس ليس خطيئة .

خوان : لكن يمكن أن يبدو للناس كذلك .

(تظهر الأخت الأخرى وتتجه إلى الجرتين لتملا منهما إبريقا)

خوان (خافضاً صوته) : أنا لا أحتمل هذه الأمور . حينما يأتى شخص ليحدثك فأغلقى فمك ، وتذكرى أنك امرأة متزوجة .

يرما (بدهشة) : متزوجة !

خوان : وأن للأسر شرفاً ، والشرف عبء يجب علينا أن نتحمله معاً .

(تغدو الأخت ببطء ومعها الابريق)

لكنه غامض ضعيف متفاوت بين عروق الدم الواحدة .

(تخرج الأخت الأخرى وهى تحمل طبقاً على هيئة من يمشى فى موكب . صمت

(يرما تنظر إلى زوجها ، وهذا يرفع رأسه ويواجه نظرتها)

إنك تنظرين إلىّ نظرة من لا يريد منى أن أقول : اصفحى عنى ، بل « أُغلق علىّ » — لأنى زوجك .

(الأختان تظهران عند الباب)

يرما : أرجوك أن تسكت . دعنا من هذا الحديث . (وقفة)

خوان : فلنذهب إلى المائدة لنأكل .

(تدخل الأختان)

هل سمعتنى ؟

يرما (برقة) : كُلْ أنت وأختيك ، فأنا لست بعدُ جائعة .

خوان : كما تشائين !

(يدخل)

يرما (وكأنها فى حلم) :

آه ! يالها من برية موحشة !

آه ! أى باب مغلق دون الجمال !

أود لو أعانى الآلام من أجل وَلد

لـكن الرياح تأتينى بدهلية القمر الناعس

إن ينبوعَىْ اللبن الدافىء اللذين أحملهما

هما فى قوام لحمى كركضتى فرسٍ تهزان غصن قلقى

آه ! يالهما من نهدين أعمَيين تحت ثيابى

آه ! إنهما حمامتان بلا عيونٍ ولا بياض

آه ! إن فى آلام دمى الحبيس

زنابير تبظل تلسعنى فى قفاى .

لـكن يجب عليك أن تأتى ، أى ولدى الحبيب !

إن الماء يعطى الملح ، والأرض تجود بالثمار

وبطوننا تحمل الأولاد الرقاق

مثلما يحمل السحابُ عذب الأمطار .

(تلتفت ناحية الباب)

ماريه ! لماذا تمرين هكذا بسرعة أمام بابى ؟

ماريه [تدخل حاملة طفلا بين ذراعيها] . هكذا أفعل دائماً حينما أكون مع الطفل . . . مادمت دائماً تبكين !

يرما : إنك على حق . (تأخذ الطفل وتجلس)

ماريه : يؤلمنى أن أراك وصدرك يضطرم حسداً .

يرما : إن ما عندى ليس حسداً ، بل شقاء .

ماريه : لا تتشكى !

يرما : كيف لا أتشكى وأنا أراك أنت وسائر النسوة حبليات بالأزهار بينما أظل أنا بغير نفع وسط كل هذا الجمال !

ماريه : لديك أشياء أخرى . ولو أصغيت إلىّ لأصبحت سعيدة ..

يرما : إن المرأة الفلاحة التى لا تلد أطفالاً هى امرأة لا نفع فيها ، شأنها شأن شجيرات الشوك ؛ بل هى سيئة ؛ فضلا عن أنى من الفضلات الساقطة من يد الله !

ماريه : (وتقوم بحركة من يريد أن يأخذ الطفل)

يرما : خذيه . خير له أن يكون بين ذراعيك . ينبغى لكفى ألا تكونا كَفَّىْ أم .

ماريه : لماذا تقولين هذا ؟

يرما (تنهض) : لأنى ضقت ذرعاً ، ضقت ذرعاً بأن تكون لى يدان ولا أستطيع الإفادة منهما كما يجب . أنا مهينة منحطة إلى أدنى الدرجات ؛ إنى أرى سنابل القمح تنمو ، والعيون تفيض بمائها ، والنعاج تلد مئات الحملان ، وحتى الكلبات ، ويخيل إلىّ أن الطبيعة كلها نهضت لتدلنى على مخلوقاتها الرقيقة الناعسة . وأنا ، أنا أحسّ بطرقتى مطرقة هاهنا ، بدلاً من فم ولدى .

ماريه : لا يعجبنى هذا الكلام .

يرما : إنكن معشر النسوة اللواتى لهن أولاد لا تستطعن أن تفهمن اللواتى لم يرزقن بأولاد . إنكن تبقين ناضرات ، جاهلات ، مثلكن مثل من يسبح فى الماء العذب فلا تخطر بباله فكرة العطش .

ماريه : لا أريد أن أكرر ما سبق أن قلته لك دائماً .

يرما : كل مرة أزداد رغبة ويتضاءل الأمل .

ماريه : هذا سيء .

يرما . سينتهى بى الأمر إلى الظن بأنى أنا ولدى . وكثيراً ما أنزل لأحمل العلف إلى الثيران ؛ لم أكن أفعل ذلك من قبل ، لأن النسوة لا يفعلن ذلك ، وحينما أمر فى ظلام الحظيرة يخيل إلىّ أن خطواتى هى خطوات رجل .

ماريه : لكل مخلوق سبب فى وجوده .

يرما : لكن رغم كل شيء استمرى فى مودتى . أنت ترين كيف أعيش الآن !

ماريه : وأختا زوجك ؟

يرما : توفانى الله بلا كفن لو وجهت إليهما حديثاً .

ماريه : وزوجك !

يرما : إن ثلاثتهم ضدى .

ماريه : ماذا يظنون ؟

يرما : تخيلات . إنهم قوم لا يهدأ لهم ضمير . إنهم يعتقدون أن من الممكن أن أحب إنساناً آخر ، ولا يعلمون أننى من قوم يضعون الشرف فوق كل شيء . إنهم حجارة أمامى ، ولا يعلمون أننى لو شئت لكنتُ السيل الذى يجرفهم جميعاً .

(تدخل إحدى الأختين ثم تخرج حاملة خبزاً)

ماريه : على كل حال أنا أعتقد أن زوجك يحبك دائماً .

يرما : إن زوجى يقدم لى الخبز والمسكن .

ماريه : أى آلام تعانين ! أى عذاب ! ولكن تذكرى آلام السيد المسيح.

(تقفان قرب الباب)

يرما (وهى تتطلع إلى الطفل) : لقد استيقظ .

ماريه : بعد قليل سيبدأ الغناء .

يرما : إن له عينين مثل عينيك ، أتعرفين ذلك ؟ هل نظرت إليهما ؟ (تبكى) إن له عينين مثل عينيك !

(يرما تدفع ماريه بهدوء ، وهذه تخرج فى صمت . تتوجه يرما نحو الباب الذى دخل منه زوجها)

فتاة ثانية : صه !

يرما (ملتفتة) : ماذا ؟

فتاة ثانية : انتظرت خروجها . إن أمى فى انتظارك .

يرما : هل هى وحدها !

فتاة ثانية : مع جارتين .

يرما : أنبئيهن أن ينتظرن قليلا .

فتاة ثانية : هل أنت ذاهبة إليهن ؟ ألست خائفة ؟

يرما : نعم أنا ذاهبة .

فتاة ثانية : هناك ، أنت ؟

يرما : فلينتظرننى ، حتى لو تأخر الوقت .

[يدخل فكتور]

فكتور : خوان موجود ؟

يرما : نعم .

فتاة ثانية [بخبث متواطئ] : إذن سأحضر الصديرية بعد قليل .

يرما : كما تشائين . [الفتاة تخرج] اجلس !

فكتور : أنا مبسوط هكذا .

يرما [تنادى] : خوان !

فكتور : أتيت للتوديع . (يتأثر قليلا ثم يسترد هدوءه) .

يرما : أراحل أنت مع إخوتك ؟

فكتور : هكذا أراد أبى .

يرما : لا بد أنه أصبح شيخاً عجوزاً .

فكتور : نعم ، عجوز جداً . (وقفة)

يرما : إنك تحس بتغير الحقول .

فكتور : كل الحقول بعضها مثل بعض .

يرما : كلا ، لو كنت مكانك لرحلت بعيداً جداً .

فكتور : الأمر سواء . كل النعاج لها نفس الصوف .

يرما : بالنسبة إلى الرجال ، نعم ؛ أما نحن النساء فالأمر عندنا يختلف . لم أسمع أبداً رجلا يصيح وهو يأكل : ما أحسن هذه التفاحات ! إنكم تسيرون فى طريقكم دون أن تتوقفوا عند اللطائف . أما أنا فأستطيع أن أقول عن نفسى : إنى أكره ماء هذه الآبار !

فكتور : ممكن . (المسرح تسوده ظلال رقيقة) .

يرما : فكتور .

فكتور : قولى لى .

يرما : لماذا أنت راحل ؟ إن الناس هنا يحبونك .

فكتور : كنت أسلك سبيلا مستقيمة . (وقفة)

يرما : هذا صحيح . أيها الشاب ، لقد حملتنى ذات مرة بين ذراعيك ، أتذكر ذلك ؟ لا يدرى أحد أبداً ما سيحدث .

فكتور : كل شىء يتغير .

يرما . هناك أمور لا تتغير ؛ فهناك أشياء مغلق عليها خلف الجدران لا يمكنها أن تتغير لأنه لا أحد يسمع لها .

فكتور : الأمر كذلك .

(تظهر الأخت الثانية ، وتتوجه ببطء إلى الباب حيث تقف ساكتة ، يضيئوها ضوء النهار الأخير)

يرما : لكن لو خرجت فجأة وصاحت ، فإنها ستملأ آذان الدنيا .

فكتور : هذا لن يقدم شيئاً . إن الساقية فى مكانها ، والقطيع فى الحظيرة ، والقمر فى السماء ، والرجل مع المحراث .

يرما : ما أسوأ ألا يستطيع المرء أن يفهم نصائح الشيوخ !
[تسمع ضجة بطيئة وحزينة صادرة عن أبواق رعاة]

فكتور : القطعان .

خوان [يظهر] : هل أنت راحل الآن ؟

فكتور : أريد أن أعبر عنق الجبل قبل مطلع النهار .

خوان : هل لك ما تشكوه منى ؟

فكتور : كلا . لقد كنت مشترياً عادلا .

خوان [موجهاً الكلام إلى يرما] : لقد اشتريت منه القطعان .

يرما : صحيح ؟

فكتور [موجها الكلام إلى يرما] : إنها لك .

يرما : لم أكن أعرف .

خوان (برضا) : هكذا .

فكتور : إن زوجك سيملأ مزرعته .

يرما : إن الثمرة تسقط فى يد العامل المجد الذى يسعى اليها .

(الأخت التى عند الباب تدخل البيت)

خوان : لم يعد لدينا مكان لوضع كل هذه النعاج .

يرما (حزينة) : إن الأرض واسعة (وقفة) .

خوان : سأرافقك حتى الجدول .

فكتور : أتمنى كل سعادة لهذا البيت . (يصافح يرما)

يرما : ربنا يسمع منك . سلاماً !

(يحاول فكتور الخروج ، لكنه يعود ، بسبب حركة من يرما غير مرئية)

فكتور : هل كنت تقولين شيئاً ؟

يرما (بطريقة درامية) : قلت لك : سلاماً .

فكتور : شكراً .

(يخرجان . يرما تبقى فى قلق ، متطلعة إلى يدها التى صافحت بها فكتور . تتوجة يرما ناحية اليسار بسرعة وتأخذ شالاً)

فتاة ثانية : هيا . (تساعدها فى تغطية رأسها) .

يرما : هيا . (تخرجان سراً) .

(المسرح يغمره الظلام . تأتى الأخت الأولى ومعها فانوس يضىء خواء المسرح تتوجه ناحية الداخل باحثة عن يرما . تسمع شخشخات القطعان) .

الأخت الأولى (بصوت خفيض) : يرما !

(تظهر الأخت الثانية ؛ تتبادلان النظرات ، وتتجهان ناحية الباب) .

الأخت الثانية (بصوت أعلى) : يرما !

الأخت الأولى (وهى تعدو ناحية الباب و بصوت آمر) : يرما !

(تسمع شخشخات القطعان ، وقرون الرعاة . المسرح فى ظلام دامس) .

نهاية الفصل الثانى

الفصل الثالث

اللوحة الأولى

(منزل دلورس العرافة . الوقت وقت الشروق . تدخل يرما ودلورس وعجوزتان)

دلورس : كنت شجاعة .

العجوز الأولى : ليس فى الدنيا أقوى من الرغبة .

العجوز الثانية : لـكن هذه المقبرة يخيم عليها ظلام دامس .

دلورس : كثيراً ما دعوت هذه الدعوات فى المقبرة مع نساء كن يردن إنجاب أطفال ، وكلهن عراهن الخوف ، كلهن ، إلا أنت .

يرما : إنما جئت للحصول على نتيجة . وأعتقد أنك لست امرأة خداعة .

دلورس : كلا . فليمتلىء فمى نملا مثل أفواه الموتى ، إذا كنت كذبت أبداً . آخر مرة قمت فيها بالدعاء من أجل شحاذة ، كانت عقيماً من زمن بعيد أطول من مـــدة عقمك ، لـكن بطنها لانت حتى أنجبت طفلين هناك قرب الجدول ، لأن الوقت لم يسعفها للذهاب إلى البيت ، وهى نفسها التى أحضرتهما إلىّ فى لفافة لأرتب شئونهما .

يرما : واستطاعت أن تمشى من الجدول حتى بيتك ؟

دلورس : نعم حضرت ، وحذاؤها وتنورتها ملطختان بالدم . . . لـكن وجهها كان مشرقاً .

يرما : ولم يحدث لها شيء ؟

دلورس : ماذا عسى أن يحدث لها ؟ الله هو الله .

يرما : طبعاً الله هو الله . ما كان يمكن أن يحدث لها شيء . لكن أخذ الصغار وغسلهم فى الماء الجارى ! إن الحيوانات تلعقها ، أليس كذلك ؟ أنا لا أنفر من ابنى . إنه يخيل إلى أن اللواتى يلدن هن فى الداخل مضيئات . والأولاد ينامون عليهن ساعات وساعات ، ويستمعون إلى جدول اللبن الدافىء الصاعد فى الأثداء ليرضعوا ، وليلعبوا ما شاءوا ، إلى أن يسحبوا رءوسهم : « أتريد قليلا بعد يا ولدى . . . » ثم يتغطى الوجه والصدر بقطرات بيض .

دلورس : الآن ، ستنجبين ولداً ؛ أستطيع أن أضمن لك ذلك .

يرما : سأنجب لأنه ينبغى أن أنجب ، وإلا كان العالم عبثاً . وأحياناً حينما أكون متأكدة أنه لن يأتى أبداً . . . يصاعد كموجة النار فى ساقى ، وتصبح كل الأشياء فى نظرى فارغة ؛ والناس الذين يمشون فى الطريق ، والثيران والأحجار كلها تبدو لى كأنها من قطن . فأتساءل : ماذا يفعلون هناك ؟

العجوز الأولى : حسن أن تريد الزوجة أولاداً ؛ لكن إذا لم يأتوا فلماذا كل هذا الجزع ؟ إن المهم فى هذه الدنيا هو أن ندع السنوات تحملنا . أنا لا أنقدك . لقد شاهدت كيف ساعدتُ فى الدعوات . لكن ماذا تظنين أنك ستمنحى طفلك : أى عقار ، وأى سعادة ، وأى كرسى من الفضة ؟

يرما : ماذا يهمنى من الغد فى مقابل اليوم ! أنت عجوز وها أنت ذى ترين كل شيء كأنه كتاب مقروء . أما أنا فأظن أنى عطشى ولا حرية لى . إنى أريد أن أمسك بابنى بين ذراعى لأنام فى سلام . اسمعى لى جيداً ولا تفزعى مما أقول : حتى لو كنت أعلم أن طفلى لا بد أن يعذبنى فيما بعد ، وأن يكرهنى ويجرنى فى الشوارع من شعرى ، فإننى سأتلقى ميلاده بسرور ،

إذ الأفضل البكاء على شخص حيّ يطعننا بالخنجر من أن نبكى على هذا الشبح الجاثم على قلبى سنة بعد أخرى .

العجوز الأولى : أنت أصغر جداً من أن تقبلى النصيحة . لكن فى انتظار لطف الله ، ابحثى عن ملاذ لك فى حب زوجك .

يرما : وا أسفاه ! لقد وضعت أصبعك على الجرح الأعمق فى لحمى .

دلورس : إن زوجك رجل طيب .

يرما (وهى تنهض) : رجل طيب ! رجل طيب ! ثم ماذا ؟ ليته كان شيئاً . لكن لا . إنه يسلك سبيله مع نعاجه ، وفى الليل يعد نقوده . وحينما يغشانى إنما يؤدى واجبه ، لكنى ألاحظ أن قوامه بارد برود الجثة ؛ وأنا التى طالما كرهت النسوة الساخنات ، بودى فى تلك اللحظة أن أكون جبلاً من نار .

دلورس : يرما !

يرما : لست زوجة قليلة الحياء ، لكنى أعلم أن الأولاد يولدون من الرجل والمرأة معاً . آه لو كنت أستطيع أنا وحدى أن أنجبهم !

دلورس : تذكرى أن زوجك أيضاً يتألم .

يرما : إنه لا يتألم . بل بالأحرى قولى إنه لا يريد أولاداً .

العجوز الأولى : لا تقولى هذا !

يرما : إنى أرى ذلك فى عينيه . ولأنه لا يريد أولاداً ، فإنه لا يعطينى أولاداً . إنى لا أحبه ، لا أحبه ، ومع هذا فهو نجاتى الوحيدة ، بسبب شرفى وشرف قومى ، هو طريق نجاتى الوحيد .

العجوز الأولى (بخوف) : عما قليل تطلع الشمس . ولا بد أن تعودى إلى بيتك .

دلورس : عما قليل تخرج القطعان ، لا ينبغى أن يراك أحد وحدك .

يرما : كنت فى حاجة إلى هـذه السلوى . كم مرة ينبغى أن أكرر الدعوات ؟

دلورس : دعاء شجر الغار مرتين ، وعند الظهر دعاء القديسة حنه . وحينما تشعرين بالحمل فآتينى بحزمة القمح التى وعدتنى بها .

العجوز الأولى : بدأ الضوء على الجبال . فهيا .

دلورس : لما كانت الأبواب ستفتح عما قليل ، فدورى من ناحية الساقية .

يرما (بيأس) : لا أدرى لماذا أتيت .

دلورس : هل أنت آسفة ؟

يرما : كلا .

دلورس (مضطربة) : إن كنت خائفة ، فسأرافقك إلى الناصية .

العجوز الأولى (بقلق) : سيكون النهار قد نشر ضياءه حينما تصلين إلى بيتك (تسمع أصوات) .

دلورس : سكوت ! (يتسمعن) .

العجوز الأولى : لا شىء . فى أمان الله !

(تتجة يرما نحو الباب ، وفى هذه اللحظة يسمع طرق . تظـل النسوة الثلاث بلاحراك)

دلورس : من ؟

صوت : أنا .

يرما : افتحى . [دلورس تردد] ستفتحين أم لا ؟

(تسمع همهمة . إخوان يظهر هو وأخته)

الأخت الثانية : ها هى ذى !

يرما : نعم هأنذى .

خوان : ماذا تفعلين ها هنا ؟ لو استطعتُ الصراخ ، لأيقظتُ القرية كلها لترى إلى أين يذهب شرف بيتى ، لـكن يجب علىّ أن أخنق هــذه المسألة وأسكت ، لأنك زوجتى .

يرما : وأنا أيضاً لو كنتُ أستطيع الصراخ ، فسأفعل ذلك ليستيقظ الموتى هم أنفسهم ويروا هذه الطهارة التى تعلونى .

خوان : لا ، هذا لا . كنت أتوقع أى شىء ، إلا هذا . إنك تخونيننى إنك تضلليننى ، ولما كنت فلاحا يحرث الأرض ، فأنا لا أفهم حِيلك وخبثك .

دلورس : خوان !

خوان : وأنتن ، لا تنطقن بكلمة !

دلورس (بقوة) : إن زوجتك لم تفعل شيئاً سيئاً .

خوان : بل هى ترتكب السيئات منذ يوم زفافها . إنها تنظر إلىّ بابرتين وتمضى الليالى ساهرة ، وعيناها مفتوحتان إلى جانبى وتملأ مخداتى بحسرات خبيثة .

يرما : اسكت .

خوان : لم أعد أستطيع الاحتمال أكثر من هذا . إذ لا بد أن يكون المرء

من البرنز ليحتمل إلى جواره زوجة تريد أن تدخل أصابعها فى قلبك وتخرج من بيتها فى جنح الليل ... بحثاً عماذا ؟ قولى لى . عمّ تبحثين ؟ إن الطرقات مليئة بالفتيان ، ليس فى الطرقات أزهار تقتطف .

يرما : اسكت . لا كلمة بعدُ ، ولا كلمة واحدة . أنت تظن أنت وأهلك أنكم وحدكم الحريصون على الشرف ، ولا تعلمون أن قومى لم يكن عندهم أبداً شىء يخفونه . تعال . اقترب منى وشم ثيابى ، اقترب ! انظر هل تجد من رائحة غير رائحة بدنك . إنك تعرّينى وسط الميدان وتبصق علىّ . افعل بى ما يحلو لك إنى زوجتك ، لكن حذار أن تلصق بصدرى اسم رجل .

خوان : لست أنا الذى ألصقه ، بل أنت بسلوكك . إن القرية بدأت تتناقل الأخبار عنك ، بدأت تتحدث بوضوح . حينما أقترب من جماعة ، يسكت الجميع ، وحينما أغدو لوزن الدقيق ، يسكت الجميع . وحتى فى الليل ، فى الحقول ، حينما أستيقظ يخيل إلىّ أن أغصان الأشجار تسكت هى الأخرى .

يرما : لست أدرى لماذا تبدأ الأهوية الفاسدة فى تقليب القمح ، لكن انظر أنت هل القمح جيد !

خوان : وأنا أيضاً لا أدرى عما تبحث امرأة لا تستقر أبداً فى بيتها .

يرما [تعانق زوجها فجأة] : إننى أبحث عنك أنت ، نعم عنك أنت . إننى أبحث عنك ليل نهار دون أن أعثر على ظل آوى إليه . إننى أنشد دمك وحمايتك .

خوان : دعينى .

يرما : لا تدفعنى ، بل ارغب معى .

خوان : دعينى .

يرما : انظر كيف أبقى وحدى . وكأن القمر يبحث عن نفسه فى السماء . انظر إلىّ . (تنظر إليه) .

خوان (ينظر إليها ثم يدفعها فجأة) : اتركينى إذن !

دلورس : خوان !

(يرما تسقط على الأرض) .

يرما (بصوت عال) : حينما خرجت من خلال القرنفل ، اصطدمت بالحائط . آه ! آه ! بهذا الحائط سيتحطم رأسى .

خوان : اسكتى . هيا بنا !

دلورس : يا إلهى !

يرما (بصراخ) : ملعون أبى الذى أعطانى دمه ، أبى الذى أنجب مائة ولد ! ملعون دمى الذى يبحث عنهم وهو يقرع الجدران !

خوان : قلت لك اسكتى .

دلورس : الناس قادمون . تكلمى بصوت خفيض !

يرما : لا يهمنى . فليدو صوتى ، الحر وحده ، الآن وأنا أغوص فى قاع الهاوية ! (تنهض) وليخرج من جسمى ذلك الشىء الجميل وليملأ الهواء .

(تسمع أصوات) .

دلورس : سيمرون من ها هنا .

خوان : صمت !

رما : نعم ! نعم ! سكوت . لا تقلق !

خوان : هيا ! بسرعة !

يرما : قُضى الأمر ! قضى الأمر ! لا فائدة من لَىٍّ يدى ! ليست الرغبة بالنفس . . .

خوان : اسكتى !

يرما (بصوت خفيض) : ليست الرغبة بالنفس هى الرغبة بالجسم . ملعون الجسم ! إنه لا يستجيب لنا . هذا مكتوب ، فلماذا هذا النضال غير المتكافىء بين ذراعى وبين الجدران ! قضى الأمر ! فليخرس لسانى !

(تخرج) .

ستار سريع

اللوحة الثانية

(البقعة المحيطة بخلوة فى صميم الجبل . فى الواجهة عجلات عربة وأغطية تؤلف خيمة ريفية فيها توجد بر ما . النسوة يدخلن الخلوة ومعهن القرابين . وهن يعدن حافيات . وعلى المسرح العجوز المرحة التى شاهدناها فى الفصل الأول)

(غناء والستار مسدل) :

حينما كنتِ فتـــاة لم أرك
مذ تزوجت فإنى سأراك
زوجةً فى الحج أنضو عنك ثوبك
حينما ينتصف الليـل البهيم

الوثنية العجوز (ساخرة) : هل شربت من المـاء المقدس ؟

امرأة أولى : نعم

الوثنية العجوز : والآن فلنشاهد هذا .

امرأة أولى : نحن نعتقد فيه .

الوثنية العجوز : إنكن تأتين طالبات من القديس أولاداً ، والنتيجة هى أنه فى كل عام يزداد عدد الرجال الذين يأتون وحدهم إلى هـذا الحج . ماذا يحدث ؟

(تضحك)

امرأة أولى : لماذا تأتين إذا كنت لا تعتقدين ؟

الوثنية العجوز : لمجرد الفرجة . إنى مجنونة بالفرجة . ولـكى أسهر أيضاً على ولدى . فى العام المـاضى تقاتل رجلان من أجل زوجة عاقر وأنا أريد أن أحافظ عليه . وأخيراً فإنى آتى لأن هذا يشوقنى .

امرأة أولى : غفر الله لك ! (تدخلان)

الوثنية العجوز (بتهكم) : فليغفر لك أنت !

(تذهب . وتدخل مارية مع الفتاة الأولى)

الفتاة الأولى : وهل جاءت ؟

مارية : ها هى ذى العربة . لقد تعبت فى إقناعهم . إنها ظلت شهراً كاملا دون أن تنهض من كرسيها . إنها تثير الخوف فى نفسى . إن عندها فكرة لست أدرى ما هى ، لكن لا شك فى أنها فكرة سيئة .

الفتاة الأولى : لقد أقبلتُ على أختى . منذ ثمانى سنوات وهى تأتى بغير نتيجة .

مارية : تلد التى يجب أن تلد .

الفتاة الأولى : وهذا هو رأيى أيضاً .

(تسمع أصوات) .

مارية : لم يسرنى أبداً هذا الحج . فلنذهب للحاق بالآخرين فإنهم هناك فى الفناء .

الفتاة الأولى : فى العام الماضى حين أقبل الليل جاء فتيان وأمسكوا نهود أختى .

مارية : فى دائرة قطرها أربعة فراسخ لا تسمع إلا حكايات مروعة .

الفتاة الأولى : لقد أبصرت أكثر من أربعين برميلاً من الخمر خلف الخلوة .

مارية : إن سيلا من الرجال وحدهم ينزل من هذه الجبال .

مارية :

يا إلهى اجعــل الوردة تزهر
لا تدعها فى ظلال دون شمس

امرأة ثانية :

وعلى لحمها الكليل فدَع —
وردة لتزهر صـــــفرا

جمع النساء :

يا إلهى ! اجعل الوردة تزهر
لا تدعها فى ظلال دون شمس

(يركعن)

يرما :

انظروا إن فى السماء لجنةً
حفلت بالورود ذات المباهج
بينهـا وردة ترفُّ عجيبه .
كشعاع الصباح يحرسها الملا
ك جناحاه كالعواصف تقصف
وعيون كسكرة الموت ترنو .
وحوالى أوراقها اللبنُ الدا
فىءُ كالجدول الرقيق يروّى
ينثر القطر فى وجوه النجوم
يا إلهى ! افتح الورود بلحمى

(ينهض)

امرأة ثانية :

هدِّىء بكفك ربِّى !
جمر الخدود المسجر

يرما :

اسمع دُعاء منيبه
جاءت لحج مقدس
افتح بلحمى وردك
مهما تعدد شوكه

المجموعة :

يا إلهى ! اجعل الوردة تزهر
لا تدعها فى ظلال دون شمس

يرما :

فى لحمىَ المصـــوِّح
الوردة العجيبـــه

(يدخلن)

(على اليسار تعــدو فتيات فى أيديهن أشرطة طويلة . وعلى اليمين ثلاث أخريات يتلفتن خلفهن . وعلى المسرح تتزايد الأصوات وضــوضاء الشخاشيخ وعقود أصحاب النواقيس . وفى مرتبة أعلى تظهر الفتيات السبع ملوحات بالأشرطة ناحية اليسار . تزداد الضوضاء ، ويدخــل شخصان بأقنعة شعبية ، أحدهما يمثل

« الذكر » والآخر « الأنثى » ، وهما يحمـلان قناعين كبيرين . و « الذكر » يحمل فى يده قرن ثور ؛ وليسا قبيحين بل رائعى الجمـال وسيماهما ريفيـة . و « الأنثى » تهز عقـداً مؤلفاً من جلاجل كبيرة . وفى أعماق المسرح جمهور يصيح ويعلق على الرقص . والظلام حالك)

أطفال : الشيطان وزوجته ! الشيطان وزوجته .

الأنثى :

إن فى ماء الجبال
تستحم الزوج وهى
ومحار المـاء يعلو
جسمها من كل صوب
وعلى رمل الشواطىء
بسمها يشرق فجـأة
ونسيمات الصبيحة
ترعـد الأكتاف منها
آه ! كم كانت عريه
بين أمواج الميـاه !

طفـل :

آه ! كم كانت تشكى !

رجل أول :

يا لهـا تضنى بحب
وبريحٍ و بمـاء

رجل ثانى :

فلتقــل ماذا ترجٍّى !

رجل أول :

فلتقل من ذا تَرَقب !

رجل ثانى :

بطنهــا فيــه جفــاف

لونهــا فيــه شــحوب

الأنثى :

فى الليالى سأقوله

فى الليالى الصافيات

فى ليـالى المغفرات

اقطع السروال منى

الطفل :

وأتى الليــــل سريعاً
آه ! قد أقبــــل ليــل
وعلى عين الجبــــال
جثم الليــــل البهيم
(بعض القيثارات تبدأ فى العزف)

الذكر (ينهض ويهز القرن) :

آه ! ما أشد شحوب الزوجة الحزينة !

آه ! كم تئن بين الغصون !

لـكن الذكر يمد رداءه .

وسرعان ما تصبح كالقرنفل أو المنثور .

(يقترب)

إذا أتيت الحجّ

فاطلبي أن تُفْـتـَح بطنك

ولا تضعى ثوب الحداد

بل قميصاً من التيل الهولندى الرقيق

إذهبي وحدك خلف الجدران

حيث غلق على أشجار التين

وتحملى جسمى الترابى

حتى الأنين الأبيض للفجر .

آه ! كم تشرق !

آه ! كم كانت مشرقة !

آه ! ما أجمل انحناءة الزوجة !

الأنثى :

آه ! فليـَضفرْ لها الحب أكاليل وتاجاً

آه ! فليرشق لها الصدرَ بسهم عسجدى

الذكر :

تنهدت سبع تنهدات

ونهضت تسع نهضات

وضم البرتقال إلى الياسمين

خمس عشرة مرة

رجل ثالث :

اطعنها بالقرن !

رجل ثان :

بالورد والرقص !

رجل أول :

آه ! ما أجمل الخناءة الزوجة !

الذكر :

في هذا الجمع الأمر دائماً للرجل

إن الأزواج ثيران

والأمر دائماً للرجل

إن النساء هدايا لمن يكسبهن

طفل :

اطعنها بالرياح

رجل ثانٍ :

اطعنها بالغصن

الذكر :

تعالوا انظروا إلى بهاء من تستحم !

رجل أول :

إنها تنحنى مثل الغائب

الأنثى :

مثل الزهرة المكدودة

الرجال :

فلتمض الفتيات الصغيرات !

الذكر :

فليشتعل الرقص

والجسم البراق

جسم الزوجة الوضيئة

(يأخذون فى الرقص وهم يصفقون بأكفهم ويضحكون ويغنون) .

انظروا إن فى السماء لجنة

حفلت بالورود ذات المباهج

بينها وردة ترف عجيبة

[تعود فتاتان وتمران وهما تصيحان . تدخل العجوز المرحة]

الوثنية العجوز : سنرى ما إذا كنتم ستدعوننا ننام . وعما قليل ستكون هي. [تدخل يرما] أنت ! [يرما فى حالة إعياء ولا تنطق] قولى لى ، لماذا جئت ؟

يرما : لا أدرى .

الوثنية العجوز : ألم تقتنعى ؟ وزوجك ؟

[يرما تشير إشارات التعب . يبدو كأن فكرة متسلطة تحطم رأسها]

يرما : إنه هنا .

الوثنية العجوز : ماذا يفعل ؟

يرما : إنه يشرب . (وقفة . تحمل يدها إلى جبينها) آه !

الوثنية العجوز : آه ! آه ! قليـــلا من الآهات وكثيراً من الشجاعة ! لم أستطع أن أقول شيئاً من قبل ، أما الآن فنعم .

الوثنية العجوز : سأقول لك ما لا سبيل بعــــد إلى إخفائه . إنه ظاهر كالشمس . إن الذنب ذنب زوجك . أتفهمينني؟ تقطع يدى إذا لم يكن الأمر كما أقول . لا أبوه ولا جده ولا جد جده كانوا من فحول الرجال . ولــكى ينجب أحدهم طفلا كان لابد أن تتضافر السماء والأرض . إنهم مصنوعون من اللعاب . أما أنت فالأمر عندك على العكس : فلك إخوة وأولاد عم منتشرون على مئات الفراسخ حولنا . فانظرى أية لعنة حلت بجمالك !

يرما : هى لعنة ، مستنقع من السم غمر السنابل .

الوثنية العجوز : لــكن لك قدمين للهرب من البيت .

يرما : للهرب ؟

الوثنية العجوز : لما رأيتك فى الحج انتفض قلبى . إن النساء اللواتى يأتين إلى هنا يتعرفن إلى رجال جديدين ، والقديس يصنع المعجزة . وابنى جالس خلف الخلوة ، وهو فى انتظارك . إن بيتى فى حاجة إلى امرأة . اذهبى معه ، وسنعيش معاً نحن الثلاثة . وابنى غنى الدم . مثلى أنا . لو دخلت بيتى شممت رائحة المهد لا تزال تعبق فيه ورماد غطاء سريرك سيصبح خبزاً وملجأ لأولادك . اذهبى . لا تهتمى بالناس . أما عن زوجك ، فإن عنـــدى من الشجاعة ومن الوسائل ما يمنعه حتى من عبور الشارع .

يرما : اسكتى ! اسكتى ! هذا ، لا . لن أفعل هذا أبداً . إنى لا أستطيع أبداً أن أقدم نفسى . أفتظنين أنى سأذهب للتعرف إلى رجل آخر ؟ أين تضعين شرفى ؟ إن الماء لا يستطيع أن يصعد المجرى ، والقمر لا يظهر فى منتصف النهار . اذهبى ! إن الطريق الذى سلكته سأتابع السير فيه . هل خطر ببالك حقاً أن فى وسعى أن آخذ رجلا آخر ؟ وأنى سأذهب اليه لأطالبه بحق ، كأنى عَبدة له ؟ اعرفينى أولا ولا تكلمينى بعد هذا أبداً . إنى لا أبحث .

الوثنية العجوز : حينما يكون المرء عطشان يُسر إذا وجد الماء .

يرما : أنا كالحقل الجاف يحرثه آلاف الثيران ، وما تعطينه إياى شبيه بكوبة صغيرة من ماء البئر . إن آلامى لم تعد بعد فى جسدى .

الوثنية العجوز (بشدة) : إذن استمرى هكذا . عندك ما تريدين . أنت كشوك الجبال فى الصحراء : مدببة ، جافة .

يرما (بشدة) : جافة ، نعم أنا أعرف ذلك ! لا داعى لشتمى . لا تتسلى كالأطفال الصغـــار أمام حشرجة حيوان يموت . منذ أن تزوجت ، وهذه الكلمة كانت تجول بخاطرى مراراً ، لكن هذه هى أول مرة أسمعها ، أول مرة يقذف بها فى وجهى . أول مرة أراها كلمة صادقة .

الوثنية العجوز : إنك لا تثيرين شفقتى ، أبداً . وسأجد لابنى امرأة أخرى .

[يُسمع صوت مجموعة من بعيد هو صوت غناء الحجاج . تتوجه يرما ناحية العربة فينكشف أمامها زوجها فجأة]

يرما : أكنت ها هنا ؟

خوان : نعم .

يرما . كنت تكمن لى للتجسس علىَّ ؟

خوان : نعم ، كنت أكمن لك .

يرما : وسمعت ؟

خوان : نعم .

يرما : ثم ما ذا ؟ دعنى واذهب للغناء (تجلس على الأغطية)

خوان : جاء دورى للكلام .

يرما : تكلم !

خوان : وللشكوى .

يرما : من ماذا ؟

خوان : من المرارة التى يغص بها حلقى .

يرما : وأنا من المرارة الشائعة فى عظامى !

خوان : من الآن فصاعداً لن أحتمل بعدُ هذه الشكوى المستمرة من أمور مبهمة ، خارج الحياة ، أمور فى الهواء .

يرما [بدهشة درامية] : خارج الحياة ، هكذا تقول ؟ فى الهواء ؟ هكذا تقول ؟

خوان : من أجل أمور لم تحصل ، ولا أنت ولا أنا نقدر عليها .

يرما [بعنف] : استمر ! استمر !

خوان : من أجل أمور لا أهمية لها عندى . أتفهمين ؟ لا أهمية لها عندى. هذا ما كان يجب أن أقوله لك . إن ما يهمنى هو ما فى يدى ، وما أراه بعينى .

يرما [تسقط على ركبتيها فى يأس بالغ] : هكذا ، هكذا ! هذا ما أردت أن أسمعه من شفتيك . . . إن الحقيقه لا تظهر طالما احتفظ بها المرء فى داخله . لـكن ما أكبرها وما أعلى صراخها حينما تخرج من الفم وترفع ذراعيها ! لايهم! الآن سمعت !

خوان [مقترباً] : فـكرى أن هـــذا أمر كان لا بد أن يقع . اسمعى [يأخذها بين ذراعيه ليجلسها] كثير من النساء يسرهن أن تكون حياتهن مثل حياتك : بلا أولاد ، تـكون الحياة أسهل وأمتع . وأنا سعيد بكونى ليس لى أولاد . إن هذه ليست غلطتنا .

يرما : وعماذا كنت تبحث فىّ ؟

خوان : عنك وحدك .

يرما [باهتياج] : هكذا ! كنت تبحث عن البيت والهدوء وامرأة . لا شىء أكثر من ذلك ، أليس كذلك ؟

خوان : نعم ، هذا صحيح . شأن كل الناس .

يرما : والباقى ؟ وابنك ؟

خوان [بقوة] : ألم تسمعينى أقول لك إنه لا أهمية له عندى ؟ لا تسأليني

بعدُ . هل لا بد لى أن أصرخ بذلك فى أذنيك لتعلميه ، حتى تعيشى بعد ذلك فى هدوء !

يرما : وأنت ، ألم تفكر فيه أبداً حينما كنت ترانى أريد ولداً ؟

خوان : أبداً .

(كلاهما على الأرض)

يرما : وهل لا أستطيع توقع مجىء ولد ؟

خوان : كلا .

يرما : ولا أنت ؟

خوان : ولا أنا أيضاً . فأسلمى أمرك !

يرما : جافة !

خوان : ولنعش الآن فى سلام ، كلانا مع الآخر فى متعة ولذة . عانقينى ! (يعانقها)

يرما : عم تبحث ؟

خوان : عنك أنت أبحث . إنك جميلة فى ضوء القمر .

يرما : أنت تريدنى كحمامة تأكلها .

خوان : قبلينى ... هكذا .

يرما : هذا أبداً ، أبداً .

(يرما تصرخ وتمسك بخناق زوجها ، وزوجها ينكفىء . تخنق زوجها حتى تقتله . تبدأ مجموعة الحجاج فى الغناء) .

جافة ، جافة ، ولـكن واثقة . نعم ! الآن أعرف ذلك بيقين . وحدى ! (تنهض . يبدأ الناس فى القدوم) . سأستريح دون أن استيقظ واثبة ، لأرى إذا كان دمى ينبىء عن دم جديد . وجسمى جاف إلى الأبد . ماذا تريدون أن تعرفوا ؟ لا تقتربوا ، لأنى قتلت ابنى ! أنا بنفسى قتلت ابنى ! (تهرع جماعة وتظل فى الخلف . تسمع مجموعة إنشاد الحج)

ستـــــار

انتهت

عرس الدم

مأساة فى ثلاثة فصول وسبع لوحات

(سنة ١٩٣٣)

أشخاص المسرحية

الأم	الجارة	القمر
الخطيبة	فتيات	الموت (فى صورة : متسولة)
زوجة ليو ناردو	ليو ناردو	حطابون
الحماة	الخطيب	شباب
الخادمة	والدة الخطيب	

الفصل الأول

اللوحة الأولى

غرفة مطلية بلون أصفر . يدخل الخطيب

الخطيب : أماه !

الأم : ماذا ؟

الخطيب : أنا ماشي .

الأم : إلى أين ؟

الخطيب : إلى الكروم (يتهيأ للخروج)

الأم : انتظر .

الخطيب : ماذا ؟

الأم : الفطور يا ابني .

الخطيب : دعيك منه ، سآكل عنباً . اعطيني السكين .

الأم : ماذا تعمل بها ؟

الخطيب [ضاحكا] : لأقطع بها العناقيد

الأم [تبحث عن السكين ، وتقول بين أسنانها] : السكين ! السكين ! لعن الله جميع السكاكين ، ولعن الله من اخترعها .

الخطيب : دعينا من هذا .

الأم : ولعن الله البنادق والمسدسات ، وأصغر الشفرات ، بل لعن الله أيضاً الفؤوس والمذارى .

الخطيب : كفى .

الأم : وكل ما يستطيع شق جسم إنسان ، جسم رجل وسيم ، فى ثغره زهرة ، يغدو إلى كرومه أو زيتونه الذى يملكه لأنه ورثه .

الخطيب (خافضا رأسه) : اسكتى .

الأم : ... وهذا الرجل لن يعود ، وإذا عاد فليوضع عليه سعف أو طبق من الملح الغليظ حتى لا يتورم . أنا لا أدرى لماذا تجسر على حمل سكين معك ، ولماذا أترك الحية فى القوس !

الخطيب : كفى .

الأم : لو عشت مائة سنة لما تحدثت إلا عن هذا . أولاً أبوك ، وكان عندى كشميم القرنفل ، لم أنعم به إلا ثلاث سنوات . ثم أخوك . هل من العدل ، بل هل من من الممكن أن شيئاً حقيراً مثل المسدس أو السكين يمكن أن يقضى على رجل قوى البنية مثل الثور ؟ إنى لن أسكت أبداً . الشهور تمر ، واليأس يلسعنى فى عيونى ، بل حتى أطراف شعرى .

الخطيب (بشدة) : أما انتهيت ؟

الأم : لا ! ، لن أسكت أبداً . هل يستطيع أحد أن يرد إلىّ أباك ، ثم أخاك ؟ هناك السجن المؤبد . ما السجن المؤبد ؟ إن المرء يأكل فيه ويدخن . أما موتاى فقد امتلأوا بالعشب . لا يستطيعون الكلام ، إنهم تراب ، وقد كانوا ناضرين كالعطر (الجيرانيوم) ؛ أما القتلة ففى السجن ، إنهم مبتهجون يتطلعون إلى الجبال ...

الخطيب : هل تريدين منى أن أقتلهم ؟

الأم : لا ، إذا كنت أتكلم فلأنى ... كيف لا أتكلم وأنا أراك تخرج من هذا الباب ؟ لأنى ... لا أريد منك أن تأخذ سكيناً ... لأنى ... لا أريد منك أن تذهب إلى الحقل .

الخطيب [ضاحكا] : إذن ، دعينا !

الأم : كنت أود أن تكون أنت امرأة ، حينئذ لن تذهب إلى النهر ، ونبقى هنا معاً لتطريز الحشايا والجراء التى من الصوف .

الخطيب [يمسك بذراع أمه] : أماه ، ما رأيك فى أن آخذك معى إلى الكروم ؟

الأم : ماذا تعمل بعجوز مثلى فى الكروم ؟ هل تخفينى تحت أوراق الكروم ؟

الخطيب [وهو يرفعها بين ذراعيه] : عجوزة ، عجوزة جداً ، فى منتهى الشيخوخة .

الأم : أبوك هو الذى كان يأخذنى . سلالة متينة ، دم خالص . جدك كان يبذر الأولاد فى كل ناحية . هذا ما يعجبنى : رجال ، فحول ، القمح ، القمح الجيد .

الخطيب : وأنا يا أمى ؟

الأم : أنت ، ماذا ؟

الخطيب : هل يجب تكرار ما قلت ؟

الأم [بلهجة جادة] : آه !

الخطيب : هل هذا لا يرضيك !

الأم : كلا .

الخطيب : إذن ؟ ...

الأم : أنا لا أعرف . إن هذا يفاجئونى دائماً . أنا أعلم أن الفتاة طيبة . أليس كذلك ؟ لطيفة ، شغالة ، تعجن خبزها وتخيط تنورتها . ومع ذلك فحين أسميها أشعر كأنى قذفت بحجر فى وجهى .

الخطيب : حماقات .

الأم : أكثر من حماقات . ذلك أنى سأبقى وحدى . ليس عندى غيرك ، فأنا حزينة لأنك ستذهب عنى .

الخطيب : لكنك ستأتين معنا .

الأم : لا ، لا أستطيع أن أترك أباك وأخاك وحدهما ها هنا . إن علىّ أن أذهب إلى المقبرة كل يوم ، أما إذا رحلت فقد يحدث أن يموت أحد أفراد فليكس ، أسرة القتلة ، وأن يدفن إلى جوارهما . وهذا لا يمكن أبداً ! هذا لا يمكن أبداً . وإلا نبشت قبره بأظافرى وأخرجته منه ومزقت جثته فى عرض الحائط .

الخطيب [بشدة] : هل تعودين مرة أخرى إلى نفس الكلام ؟

الأم : عفواً . [وقفة] منذ متى وأنت على صلة بها ؟

الخطيب : ثلاث سنوات ؛ وقد استطعت شراء حقل الكروم .

الأم : ثلاث سنوات .. ألم تكن هى مخطوبة من قبل ؟

الخطيب : لا أعرف . أعتقد أن لا . ثم إن الفتيات يتطلعن إلى من سيتزوج منهن .

الأم : نعم . أما أنا فلم أتطلع إلى أحد . لقد تطلعت إلى أبيك ، ومنذ أن قتلوه لم أتطلع إلا إلى الجدار المواجه . امرأة مع رجل ، وكفى .

الخطيب : أنت تعلمين أن خطيبتى بنت طيبة .

الأم : لا أشك فى ذلك . لكنى مع ذلك أود أن أعرف كيف كانت أمها .

الخطيب : وما شأن هذا ؟

الأم : ولد !

الخطيب : ماذا تقصدين ؟

الأم : هذا حق . أنت على حق . متى تريد أن أطلبها ؟

الخطيب (مسروراً) : يوم الأحد ، هل يوافقك ؟

الأم (بجد) : سأحمل اليها أقراط النحاس (الصُّفْر) ، إنها قديمة ، وأنت تشترى لها ...

الخطيب : أنت تفهمين فى هذا خيراً منى .

الأم : اشتر لها جوارب بالأجور ، وفصل لنفسك حلتين أو ثلاثاً ، فليس عندى غيرك .

الخطيب : أنا ذاهب . سأغدو لرؤياها غداً .

الأم : نعم ، وابذل جهدك لإشاعة السرور فى نفسى بانجاب ستة أولاد أو أكثر إذا شئت ، مادام أبوك لم يكن لديه الوقت لجعلى أنجب .

الخطيب : أول مولود سيكون لك .

الأم : نعم ، لكن لا بد أن تنجب أيضاً بنات ، لأنى أريد التطريز وعمل الدنتلة وأن أعيش فى راحة .

الخطيب : أنا متأكد أنك ستحبين خطيبتى .

الأم : سأحبها . (تقترب منه لتقبيله ، ولكنها تتوقف) . اذهب، لم تعد بعد فى سن التقبيل . ستقبل أنت زوجك . (وقفة . ثم تقول لنفسها :) حينما تصبح زوجك .

الخطيب : أنا ماشى .

الأم : شذب جيداً كرمة الطاحونة الصغيرة ، فإنك تهملها .

الخطيب : حاضر !

الأم : فى حفظ الله .

(يمضى الخطيب . تبقى الأم جالسة ، وظهرها ناحية الباب . على العتبة تظهر جارة تلبس ثوباً قاتماً ، وعلى رأسها شال)

ادخلى !

الجارة : كيف حالك ؟

الأم : كما ترين .

الجارة : نزلت لشراء بعض الحاجيات ، فأتيت لرؤياك . إنا نسكن بعيداً !

الأم : منذ عشرين سنة لم أصعد الى نهاية الشارع .

الجارة : أنت فى صحة جيدة .

الأم : تعتقدين ؟

الجارة : الأمور تمضى . منذ يومين قطعت الآلة ذراعى ابن جارتى . (تجلس) .

الأم : روفائيل ؟

الجارة : نعم . وكثيراً ما أفكر في أن ابنك وابني مبسوطان حيث هما ، ينامان في راحة غير معرضين لبتر أعضائهما .

الأم : اسكتي . اختراعات كل هذه ، وليس فيها عزاء .

الجارة : آه !

الأم : آه ! (وقفة)

الجارة (بحزن) : وابنك ؟

الأم : خرج .

الجارة : وأخيراً اشترى الكروم !

الأم : كان سعيد الحظ .

الجارة : الآن يتزوج .

الأم (وكأنها تستيقظ ، تقرب كرسيها من كرسي جارتها) : اسمعي !

الجارة (وكأنها تفضي بسر) : قولي لي .

الأم : هل تعرفين خطيبة ابني ؟

الجارة : انها بنت طيبة .

الأم : نعم . ولكن . .

الجارة : لكن من ذا الذي يعرفها حق المعرفة ؟ لا أحد . إنها تعيش وحدها مع أبيها ، هناك ، بعيداً ، على مسافة عشرة فراسخ من المساكن . لكنها طيبة ، متعودة للوحدة .

الأم : وأمها ؟

الجارة : لقد عرفت أمها . كانت جميلة ، وجهها وضيء كوجه قديس ؛ بيد أنها لم تعجبنى أبداً . كانت لا تحب زوجها .

الأم (بشدة) : ولكن ما أكثر ما يعرف الناس !

الجارة : عفواً . لم أشأ الإساءة إلى أحد ؛ ولكن هذه هى الحقيقة . أما هل كانت شريفة أولا ، فلا أحد قال . لا أحد تكلم عنها . فقد كانت متكبرة .

الأم : ثم ماذا !

الجارة : أنت التى سألتنى .

الأم : لأنى أريد ألا يعرفهما أحد ، لا الحية ولا المتوفاة . فتكونا مثل شوكتين لا يذكرهما أحد ، ولكنهما يلدغان عند الحاجة .

الجارة : أنت على حق . إن ابنك يساوى كثيراً .

الأم : يساوى . ولهذا أرعاه . قيل لى إن البنت كانت مخطوبة قبل ذلك .

الجارة : كانت سنها آنذاك خمس عشرة سنة . ومنذ سنتين تزوج خطيبها ذاك من إحدى بنات عمها . وكل الناس نسوا تلك الخطبة .

الأم : وأنت ، هل نسيتها ؟

الجارة : أنت سألتنى !

الأم : الناس يحبون التحدث فيما يؤلم . من كان خطيبها هذا ؟

الجارة : ليونردو .

الأم : أى ليونردو ؟

الجارة : ليونردو من أسرة فليكس .

الأم [وهى تنهض] : من أسرة فليكس !

الجارة : امرأة ! لم تكن غلطة ليونردو . لقد كان فى الثامنة من عمره حين حدثت الحوادث .

الأم : هذا صحيح ... لكن حين يذكر اسم أسرة فليكس [بين أسنانها] فليكس ... أشعر كأن فمى امتلأ بالطين ، ولا بد أن أبصق [تبصق] نعم أبصق حتى لا أقتل .

الجارة : هدئى نفسك . ماذا يفيدك هذا ؟

الأم : لا شىء . لكنك تفهميننى .

الجارة : لا تقفى فى طريق سعادة ابنك . لا تقولى له شيئاً . أنت عجوزة . وأنا أيضاً . أنت وأنا ليس لنا إلا السكوت .

الأم : لن أقول شيئاً .

الجارة : لا شىء [تقبلها] .

الأم [بهدوء] : الحكايات ! ...

الجارة : أنا ذاهبة ، فعما قليل سيعودون من الحقل .

الأم : رأيت حرارة الجو اليوم ؟

الجارة : إن الغلمان الذين حملوا الشراب إلى الحصادين كانوا جميعاً سوداً . وداعاً ، أيتها المرأة .

الأم : وداعاً .

(تتوجه الأم ناحية الباب الأيسر . وفى منتصف المسافة تتوقف وترسم علامة الصليب)

اللوحة الثانية

(غرفة مطلية باللون الوردى ، وأوان نحاسية وغصون أزهارها شعبية . وفى الوسط منضدة مغطاة بفرش . الوقت فى الصباح .

حماة ليوناردو تحمل طفلا بين ذراعيها ، وتهدهده ، والزوجة تشتغل فى التريكو فى الطرف الآخر من الغرفة)

الحماة :

نانا ، كِبْدى ، نانا !
فرسٌ لا يبغى أن يشرب
بين الأغصان الما[1] أسود
وعلى الجسر الأعلى ينشد
من يدرى ما يروى المـاء
لمـا يجرى مُلْقٍ ذيله ؟

الزوجة (بصوت خفيض) :

نم يا قرنفل فى هـدوء
لا يبتغى الفرس الشراب

الحماة :

نم أيهـا الورد البهيج
المهر أنشأ فى البـكاء
رِجلاه تؤلمها الجراح
والعرف أبرد من جليـد
عيناه تحزهـا السهام

(١) = الماء .

نزلوا إلى شط المياه
آه إذا نزلوا إليه !
تجرى الدماء أشد من جرى المياه

الزوجة :

نمْ يا قرنفل فى هدوء
لا يبتغى الفرَس الشراب

الحماة :

نمْ أيها الورد البهيج
للمهر أنشأ فى البكاء

الزوجة :

لم يشأ أن يلمس الشط المبلل
كان فى الخطم ذبابٌ من لجين
فى جبال قاسيات كان يصهل
وحده والنهر فى أعلا المضيق
لم يشأ أن يشرب الماء الفرسْ
يا لحزن الثلج ، أىْ مهر الصباح !

الحماة :

لا تجىء ! قف لا تجىء ! سد النوافذ
بغصون الحلم أو حلم الغصون

الزوجة :

إن ابنى ينام ،

الحماة : إن ابنى يسكت .

المرأة : أيها الفرس ! إن لابنى مخدة .

الحماة : وله مهد من الصلب .

الزوجة : وبياضات من النسيج الهولندى .

الحماة :

نانا : كبدى ! نانا !

الزوجة :

لم يشأ أن يشربَ الماءَ الفرس .

الحماة :

لا تأت ، لا تدخل !

اذهب إلى الجبل .

ومر بالأودية الغبراء .

حيث الفرس

الزوجة (وهى تتطلع) : ابنى ينام .

الحماة : ابنى يستريح .

الزوجة (بصوت خفيض) :

نم يا قرنفل فى هدوء

لا يبتغى الفرس الشراب

الحماة : (وهى تنهض ، هامسة) :

نم أيها الورد البهيج

المهر أنشأ فى البكاء

(تاخذان الطفل . يدخل ليونردو)

ليونردو : والطفل ؟

الزوجة : نام .

ليونردو : لم يكن فى حال جيدة بالأمس . لقد نام طوال الليل .

الزوجة (بابتهاج) : أما اليوم فهو مثل زهرة الداليا . وأنت ؟ هل كنت عند البيطار ؟

ليونردو : نعم أنا قادم من عنده . هل تتصورين أن فرسى فقد نعاله الجديدة كلها ؟ لا شك أنه الحصى هو الذى انتزعها .

الزوجة : أو لعلك تركبه كثيراً !

ليونردو : لا ! إنى لا أكاد أستعمله .

الزوجة : بالأمس قالت لى الجارات انهن رأينك عند أطراف السهل .

ليونردو : من قال لك ذلك !

الزوجة : النسوة اللواتى كن يقطفن الكبارات . والحق أنى دهشت من ذلك . هل كنت أنت !

ليونردو : كلا . ماذا كنت سأعمل فى تلك الجهة !

الزوجة : وهذا ما أجبتهم به . لكن فرسك كان منهوك القوى يتصبب عرقاً .

ليونردو : هل رأيته !

الزوجة : أنا ، لا . أمى .

ليونردو : هل هى مع الطفل ؟

الزوجة : نعم . هل تريد عصير ليمون ؟

ليونردو : بماء بارد جداً .

الزوجة : كيف لم تأت لتتناول الطعام !

ليونردو : كنت مع قيّاسى القمح . ومضى الوقت .

الزوجة (تحضر العصير . وبرقة تقول) : هل سيدفعون ثمناً طيباً فيه ؟

ليونردو : السعر العادل .

الزوجة : أنا محتاجة إلى فستان ، والطفل محتاج إلى طاقية بأشرطة .

ليونردو : أنا ذاهب لرؤياه (ينهض)

الزوجة : انتبه فهو نائم .

الحماة (تدخل) : لكن من ذا الذى جعل الفرس يقوم بكل هذه المشاوير ! إنه يرقد هناك وعيناه خارج رأسه وكأنه قدم من آخر الدنيا .

ليونردو (بحرارة) : أنا .

الحماة : عفواً ! إنه فرسك على كل حال .

الزوجة (بخوف) : لقد كان مع قياسى القمح .

الحماة : فى رأيى أنا أن الفرس يمكن أن يموت من هذا المجهود (تجلس . صمت) .

الزوجة : اشرب ، إنه بارد .

ليوناردو : نعم .

الزوجة : هل تعلم أن بنت عمك يراد طلب يدها ؟

ليوناردو : متى ؟

الزوجة : غداً . وبعد شهر ، العرس . وآمل أن يأتوا ليدعونا .

ليوناردو (بجد) : لست أدرى .

الحماة : أنا أعلم أن أمه هو ليست راضية تماماً عن الزواج .

ليوناردو : لعلها على حق . إنها فتاة تحتاج إلى مراقبة .

الزوجة : لا أحب أن يساء الظن بفتاة طيبة .

الحماة : إنه يقول هذا لأنه يعرفها — ألم يكن خطيبها ثلاث سنوات ! (بقصد)

ليوناردو : لـكنى تركتها . (لزوجه) لن تبكى الآن ! (يبعد يديها عن وجهها فجأة) فلنذهب لرؤية الطفل . (يخرجان متعانقين . تظهر الفتاة وكلها بشر وسرور ، تدخل وهى تعدو)

الفتاة : سيدتى !

الحماة . ماذا !

الفتاة : جاء الخطيب إلى الدكان واشترى خير ما فيه .

الحماة : جاء وحده ؟

الفتاة : لا ، مع أمه ؛ إنها طويلة عبوس (تقلدها) . لـكن ، أى ترف !

الحماة : عندهم مال .

الفتاة : اشتريا جوارب بالأجور ! أى جوارب ! أجمل جوارب يمكن أن تحلم بها امرأة ! تأملي:سنونو هنا (تشير إلى كعبها) ، وسفينة هاهنا (تشير إلى بطن ساقها) ، ووردة هنا (تشير إلى فخذها) .

الحماة : بنت !

الفتاة : وردة ذات ساق وأوراق . (تتنهد) آه ! وكل هذا من حرير .

الحماة : ستجتمع ثروتان عظيمتان . (يدخل ليونردو وزوجته)

الفتاة : أتيت لأروى لكم ماذا اشتريا .

ليونردو (حزيناً) : هذا لا يهمنا .

الزوجة : دعها تقص .

الحماة : ليونردو ، لا داعى !

الفتاة : معذرة ! (تخرج باكية)

الحماة : أى حاجة بك إلى التنازع مع الناس ؟

ليونردو : لم أسألك عن رأيك .

الحماة : حسناً . (صمت)

الزوجة : ما ذا بك ؟ أي فكر يشغلك ؟ أنا لا أستطيع السكوت هكذا ، دون أن أعرف شيئاً .

ليونردو : دعى هذا .

الزوجة : أريد منك أن تقول لى .

ليوناردو : دعيني .   (ينهض)

الزوجة : إلى أين ، يا بني ؟

ليوناردو (بمرارة) : أتقدرين على السكوت ؟

الحماة (بقوة ، موجهة الكلام إلى بنتها) : اسكتي ! (يخرج ليوناردو) الطفل ! (تعود ، والطفل بين ذراعيها . الزوجة واقفة لا تتحرك)

رجلاه تؤلمها الجراح

والعرف أبرد من جليد

عيناه تخرزها السهام

نزلوا إلى شط المياه

آه إذا نزلوا إليه

تجرى الدماء أشد من جرى المياه

الزوجة (راجعة ببطء وكأنها فى حلم) :

نم يا قرنفل في هدوء

لا يبتغى الفرس الشراب

الحماة :

نم أيها الورد البهيج
المهر أنشأ فى البكاء

الزوجة :

نانا ، كِبْدى ، نانا !

الحماة :

فرس لا يبغى أن يشرب

الزوجة :

لا تأت ، لا تدخل !

اذهب إلى الجبل

يا لحزن الثلج ، أى مهر الصباح !

الحماة (باكية) : ابنى ينام .

الزوجة (تبكى وتقترب شيئاً فشيئاً) : ابنى يستريح

الحماة :

نم يا قرنفل فى هدوء

لا يبتغى الفرس الشراب

الزوجة (تبكى متكئة على المنضدة) :

نم أيها الورد البهيج

المهر أنشأ فى البكاء

ستار

اللوحة الثالثة

(داخل الكهف الذى تسكن فيه الخطيبة . فى الأعماق ، صليب ذو أزهار وردية كبيرة . الأبواب مستديرة ، ولها ستائر من الدنتلة المعقودة بالشرائط الوردية . وعلى الجدران المصنوعة من مادة بيضاء قاسية ، مراوح مستديرة ، وأوان زرقاء ومرايا صغيرة) .

الخادمة : تفضلوا ! (رقيقة ، مليئة بالنفاق المتواضع . يدخل الخطيب وأمه . الأم تلبس ثوباً من الساتان الأسود ، وعلى رأسها طرحة بالدنتلة . والخطيب يلبس حلة من القطيفة السوداء ، وسلسلة كبيرة من الذهب) .

هل تتفضلان بالجلوس ؟ هم قادمون حالا . (تخرج)

(الأم وابنها يجلسان دون حراك كأنهما تمثالان . صمت طويل) .

الأم : هل معك ساعتك

الخطيب : نعم . (يخرجها من جيبه وينظر فيها)

الأم : يجب أن نعود مبكراً . إنهم يسكنون بعيداً

الخطيب : لكن الأرض جيدة .

الأم : جيدة ، ولكن منعزلة تماماً . فطوال أربع ساعات سفر لم نمر بمنزل ولا بشجرة .

الخطيب : هنا أرض جيرية .

الأم : لو كان أبوك لغطاها بالأشجار .

الخطيب : بغير ماء ؟

الأم : كان سيجد فى البحث عن ماء . إنه فى خلال الثلاث سنوات التى

تزوجنا فيها قدزرع شجرتى كرز ، (تحاول أن تتذكر) ، وثلاث شجرات البندق التى حول الطاحونة ، ومزرعة كروم ، ونباتاً يدعى خوبيتر يعطى أزهاراً حمراء غير أنه جف (صمت) .

الخطيب (مفكراً فى خطيبته) : لا بد أنها تتزين .

(يدخل والد الخطيبة : رجل عجوز ذو شعر أبيض لامع . يميل برأسه . الأم والخطيب ينهضان ويصافحان فى صمت)

الوالد : لقد سلكتما الطريق الأطول .

الأم : أنا عجوز لا أستطيع أن أسلك طريق منحدرات النهر .

الخطيب : هذا يضايقها . (صمت)

الوالد : محصول الحلفا جيد .

الخطيب : نعم جيد حقاً .

الوالد : فى أيام شبابى لم تكن هذه الأرض تنبت حتى الحلفا : وكان لابد من عقابها بل والتضرع إليها حتى تعطى محصولا مفيداً .

الأم : لكنها تعطى محصولا الآن : أنا لا أشكو ، وأنا لم آت لأطلب منك شيئاً .

الوالد (وهو يبتسم) : أنت أغنى منى . إن الكروم ثروة . كل نبتة منها تساوى قطعة من الفضة . وما آسف عليه هو أن أراضينا .. تفهمين ؟ منعزلة بعضها عن بعض . وأنا أحب أن يكون كل شىء مع بعضه بعضاً : إن فى قلبى شوكة : قطعة أرض داخلة فى أرضى ولا يريد صاحبها بيعها ولا بذهب الدنيا كلها .

الخطيب : هذا ما يحدث دائماً

الوالد : لو أن عشرين زوجا من الثيران تستطيع أن تأتى بكرومك إلى هنا وأن تغرسها على سفوح الرابية ، فما أعظمه من سرور !

الأم : لماذا ؟

الوالد : ما هو لى هو لها ، وما هو لك هو له : حتى نرى كل شىء معاً لأن جمع الكل شىء جميل !

الأم : لما أموت تبيع الأرض التى هناك وتشترى بدلا منها هنا .

الوالد : بيع ! بيع ! ما يجب هو الشراء ، شراء كل شىء . ولو كان عندى أبناء لكنت قد اشتريت كل هذه الهضبة حتى النهر . إن الأرض ليست جيدة ولكن بالسواعد يمكن تثميرها ؛ ولما كان لا يمر بهذا المكان أحد لسرقة الفاكهة ، فيمكن المرء أن ينام ملء جفونه (صمت)

الأم : أنت تعرف لماذا جئت .

الوالد : نعم .

الأم : إذن ؟

الوالد : يبدو لى أمراً حسناً . إنهما متفقان على ذلك .

الأم : إن ابنى عنده ما يحتاج إليه .

الوالد : وبنتى أيضاً .

الأم : ابنى ولد مستقيم . لم يعرف امرأة من قبل . وشرفه أنصع من الملاءة فى الشمس .

الوالد : وماذا أقول عن ابنتى ؟ إنها تبدأ فى العجن فى الساعة الثالثة صباحا حينما يبزغ نجم الراعى . ولا تثرثر أبداً . رقيقة كالعهن المنفوش . وتطرز أنواعا

مختلفة من التطريز ؛ كما أنها تستطيع أن تقطع حبلا بأسنانها .

الأم : بارك الله فى بيتها .

الوالد : بارك الله فيها .

(تظهر الخادمة ومعها صينيتان احداها عليها أكواب ، والأخرى فطائر)

الأم (لابنها) : متى تريد الزفاف ؟

الخطيب : الخميس القادم

الوالد : فى هذا اليوم ستتم الثانية والعشرين

الأم : اثنتان وعشرون سنة ! هذا العمر كان سيكون عمر ابنى الأكبر لو عاش ؛ لأنه كان سيعيش حاراً فحلا ، لو لو يخترع الناس المسدس .

الوالد : يجب ألا تفكرى فى هذا .

الأم : إنى أفكر فيه طول الوقت . ضع يدك على صدرك

الوالد : إذن ، يوم الخميس ؟ أليس كذلك ؟

الخطيب : نعم

الوالد : العروسان ونحن : نركب العربة حتى الكنيسة ، وهى بعيدة جداً . أما المشاركون فى الزفة فيركبون العربات والخيول التى أتت بهم .

الأم : اتفقنا (تمر الخادمة)

الوالد : قولى لها تحضر . — (للأم) سأسر إذا أعجبتك

(تظهر الخطيبة . يداها معلقتان بتواضع ورأسها خفيض) .

الأم : اقتربى ! هل أنت راضية ؟

الخطيبة : نعم يا سيدتى .

الوالد : لا تأخذى هذا المظهر المتكلف . فإنها فى النهاية ستكون أمك .

الخطيبة : أنا مبسوطة . إذا كنت وافقت فلأنى أريد ذلك .

الأم : طبعاً . (تأخذ بذقنها) تطلعى فىَّ .

الوالد : إنها صورة طبق الأصل من زوجتى .

الأم : صحيح ؟ ما أجمل نظرتها ! أنت تعرفين ما الزواج يا ابنتى !

الخطيبة (جادة) : نعم .

الأم : رجل ، وأولاد ، وجدار كبير بينك وبين سائر الأشياء .

الخطيبة : وهل بقى شىء آخر ؟

الأم : كلا . لكن ليعيشوا جميعاً ! نعم ! ليعيشوا !

الخطيبة : سأؤدى واجبى .

الأم : خذى : هدايا .

الخطيبة : شكراً .

الوالد : هل تتناولين شيئاً ؟

الأم : أنا ، لا .

الوالد (للخطيب) : وأنت ؟

الخطيب : عن طيب خاطر . (يأخذ فطيرة ، وكذلك الخطيبة)

الوالد : شيئاً من النبيذ ؟

الأم : إنه لا يشرب أبداً نبيذاً .

الوالد : أحسن . (صمت . كلهم واقفون)

الخطيب : (للخطيبة) : سأحضر غداً .

الخطيبة : فى أية ساعة .

الخطيب فى الساعة الخامسة .

الخطيبة : سأنتظرك .

الخطيب : حينما أفارقك أشعر بشىء يمزقنى وكأن أنشوطة تمسك بمخنق .

الخطيبة : سيتغير هذا حينما تصبح زوجى .

الخطيب : وهذا هو ما أقوله لنفسى .

الأم : هيا بنا ، فالشمس لا تنتظر . (للوالد :) نحن على اتفاق فى كل شىء .

الوالد : نعم على اتفاق

الأم (للخادمة) : وداعاً يا امرأة !

الخادمة : فى حفظ الله .
(الأم تقبل الخطيبة ويخرجان فى صمت)

الأم (عند العتبة) : وداعاً يا ابنتى !
(الخطيبة تجيب بإشارة من يدها)

الوالد : سأصحبكما . (يخرجون)

الخطيبة (بحدة) : دعى هذا .

الخادمة : هيا ، أرينى .

الخطيبة : لا ، لا أريد .

الخادمة : على الأقل أريني الجوارب . يقال إنها كلها بالأجور . من فضلك !

الخطيبة : قلت لا !

الخادمة : يا إلهي ! حسناً . كأنك لا تريدين الزواج .

الخطيبة (تعض يدها) : آه !

الخادمة : يا ابنتي ، ماذا جرى لك ؟ هل تأسفين على ترك هذه الحياة التي تشعرين فيها بأنك ملكة ؟ لا تفكرى فى أمور غير سارة ! هل هناك داع ؟ كلا . هيا بنا نشاهد الهدايا . (تأخذ الصندوق)

الخطيبة (تمسك بكفيها) : اتركيه .

الخادمة : أوه يابنية !

الخطيبة : قلت لك اتركيه .

الخادمة : أنت قوية مثل رجل .

الخطيبة : ألم أشتغل كالرجال ؟ آه لو كنت ولداً !

الخادمة : ينبغى ألا تقولى هذا .

الخطيبة : اسكتى ، قلت لك . لنتحدث عن شىء آخر .
(يختفى النور من المسرح)

الخادمة : هل سمعت صوت فرس فى الليلة الماضية ؟

الخطيبة : فى أية ساعة ؟

الخادمة : الثالثة .

الخطيبة : لا بد أنه كان فرساً ضالا من القطيع .

الخادمة : كلا ، كان عليه راكب .

الخطيبة : ومن أدراك ؟

الخادمة : رأيته . توقف أمام نافذتك . لقد أدهشني هذا .

الخطيبة : ربما كان خطيبي . فأحيانا يأتي حوالي ذلك الوقت .

الخادالة : كلا .

الخطيبة : هل تبينت شخصياً بذاته ؟

الخادمة : نعم .

الخطيبة : من ؟

الخادمة : ليوناردو .

الخطيبة (صائحة) : كذابة ! كذابة ! ما ذا كان سيأتي به هنا ؟

الخادمة : لقد أتى .

الخطيبة : اخرسي . لعن الله لسانك !
(يسمع ركض فرس)

الخادمة (عند النافذة) : أنظري . انحني . ألم يكن هو ؟

الخادمة : نعم هو ، كان هو .

ستار سريع

الفصل الثانى

اللوحة الأولى

(اسطوان بيت الخطيبة . باب كبير فى الأعمـاق . الليل . تظهر الخطيبة على المسرح وهى تلبس تنورة بيضاء منشـاة ، ومزودة بدنتلة وكرنيش ، وكورسيه أبيض ، وذراعاها فى الهواء ، والخادمة تلبس نفس الثياب)

الخادمة : هنا سأنتهى من تمشيطك .

الخطيبة : لا يمكن البقاء فى الداخل بسبب شدة الحر .

الخادمة : فى هذه الناحية الفجر نفسه لا يأتى بهواء منعش .

(تجلس الخطيبة على كرسى واطىء ، وفى يدها مرآة صغيرة . تأخذ الخادمة فى تمشيطها)

الخطيبة : كانت أمى من بلاد مغطاة بالأشجار ، أرضها غنية .

الخادمة : ولهذا كانت مرحة .

الخطيبة : نعم : كأنها استهلكت هاهنا .

الخادمة : كان ذلك مصيرها المقدّر لها .

الخطيبة : كلنا نُستهلك هاهنا . هنا يحترق المرء من مجرد لمس الجدار . آه ، لا تشدينى هكذا !

الخادمة : من أجل تنظيم هذه التمويجة على نحو أفضل . إنى أريد أن تسقط على جبينك .

(الخطيبة تتطلع فى المرآة) : ماأجملك ! (تتنهد) آه ! (تقبلها بحرارة) .

الخطيبة (بجد) : افرغى من تمشيطى .

الخادمة (وهى تمشطها) : ما أسعدك أنت التى ستضمين رجلا بين ذراعيك !

الخطيبة : اسكتى .

الخادمة : أجمل شىء هو الاستيقاظ : حينما تشعرين بأنفاسه تمس كتفك كريش العندليب .

الخطيبة : هل تخرسين ؟

الخادمة : لكن ، يا بنتى ماهو العرس ؟ أزهار ؟ فطائر ؟ كلا . إنه سرير كبير لامع ، فيه رجل وامرأة .

الخطيبة : ينبغى ألا يفصح المرء عن هذا .

الخادمة : صحيح ، ولكن هذا لا يمنع من أنه شىء لذيذ .

الخطيبة : أو مر .

الخادمة : سأرتب عود الأزهار بحيث ينفصل عن شعرك .

الخطيبة (تنظر إلى نفسها فى المرآة) : هات .

(تأخذ عود الأزهار وتنظر فيه ، وتدعه يسقط على رأسها المنهوك)

الخادمة : ماذا جرى لك ؟

الخطيبة : دعينى .

الخادمة : ليس هذا وقت الحزن ، (بحماسة) هات عود الأزهار (الخطيبة تلقى به على الأرض) . يا ابنتى ! هل تريدين أن تجلبى على نفسك السوء برمى

تاجك ؟ إذا كان الزواج يخيفك ، فلا يزال فى الوقت متسع . يمكنك أن تتراجعى . (تنهض)

الخطيبة : هذه أبخرة . هواء فاسد فى الوسط . من ذا الذى لا يحس به ؟

الخادمة : هل تحبين خطيبك ؟

الخطيبة : نعم أحبه .

الخادمة : نعم ، نعم ، وأنا واثقة من ذلك .

الخطيبة : لكن هذه خطوة كبيرة . . الزواج .

الخادمة : لا بد من القيام بها .

الخطيبة : وأنا قد أعطيت كلمتى .

الخادمة : هيا ، سأضع الآن تاجك .

الخطيبة (تجلس) : أسرعى ! لا بد أنهم قادمون الآن .

الخادمة : هم قطعاً فى الطريق منذ ساعتين .

الخطيبة : كم المسافة من هنا إلى الكنيسة ؟

الخادمة : خمس فراسخ عن طريق النهر . أما عن الطريق العام فالضعف .

(الخطيبة تنهض . الخادمة تصيح عجباً وإعجاباً بمنظرها)

ألا هى عروسه !
صباح العرس وافى .
نهور الأرض طراً
تزجى اليوم تاجك

الخطيبة (مبتسمة) : هيا !

الخادمة (تقبلها بحماسة وترقص حولها)

ألا هُبي بغُصنٍ
من الغار النضير
ألا هبي بساق
وغصن الغار وافر

(تسمع أصوات مطرقة الباب)

الخطيبة : افتحى ! لا بد أنه الفوج الأول من المدعوين !

[تخرج الخطيبة . تفتح الخادمة الباب . يدخل ليوناردو]

الخادمة (بدهشة) : أنت ؟

ليوناردو : نعم أنا . صباح الخير .

الخادمة : أنت أول الحاضرين ؟

ليوناردو : ألستُ مدعواً ؟

الخادمة : نعم .

ليوناردو : لهذا حضرت .

الخادمة : وزوجتك ؟

ليوناردو : لقد أتيت راكباً الفرس . أما هي فقادمة بالطريق العام .

الخادمة : ألم تقابل أحداً ؟

ليوناردو : اجتزتهم جميعاً بفرسى .

الخادمة : ستقتل فرسك بكل هذا الركض .

ليوناردو : إذا مات ، مات . (صمت)

الخادمة : اجلس . لم يستيقظ أحد حتى الآن .

ليوناردو : والعروسة !

الخادمة : سألبسها ثيابها .

ليوناردو : العروسة ، لابد أنها سعيدة !

الخادمة (لتغيير الموضوع) : والصغير ؟

ليوناردو : أى صغير ؟

الخادمة : إبنك .

ليوناردو : (يتذكر وكأنه يحلم) . آه !

الخادمة : هل سيأتون ؟

ليوناردو : كلا .

(وقفة . أصوات تغنى من بعيد جداً)

أصوات :

ألا هبى عروسة

صباح العرس وافى .

ليوناردو :

ألا هبى عروسه

صباح العرس وافى

الخادمة : إنهم المدعوون . ولكنهم لا يزالون على مسافة بعيدة .

ليونردو (ناهضاً) : ستحمل العروسة تاجاً كبيراً ، أليس كذلك ؟ ولكن التاج الصغير أنسب لها . والعريس : هل قدم لها عود الأزهار الذى ستحمله على صدرها ؟

الخطيبة (تظهر وهى لا تزال فى تنورتها وتزدان بتاج الأزهار)

هو الذى أحضره

الخادمة (بشدة) لا تخرجى هكذا !

الخطيبة : وماذا أيضاً (بجد) . لماذا تسأل هل أحضر الأزهار ؟ هل تقصد شيئاً .

ليونردو : ما ذا عسى أن أقصد : لا شىء . (يقترب) أنت تعرفين أننى لا أقصد أمراً . قولى لى . من كنت أنا بالنسبة إليك ! استعيدى ذكرياتك . ولكن ثورين وكوخاً حقيراً ليسا بشىء تقريباً . تلك هى المصيبة .

الخطيبة : ماذا أتيت تفعل هنا .

ليونردو : أتيت لمشاهدة زفافك

الخطيبة : وأنا أيضا شاهدت زفافك

ليونردو : لقد رتبته أنت ، وبيديك صنعته . يمكن قتلى ، لكن لا يمكن البصق على ؛ والفضة ، التى تلمع كثيراً ، أحياناً تبصق .

الخطيبة : كذب !

ليونردو : لا أريد الكلام ، لأنى رجل من أسرة ولا أريد أن تسمع صياحى كل هذه الروابى .

الخطيبة : صياحى سيكون أشد .

الخادمة : هذه كلمات لا يليق التفوه بها . يجب ألا تتحدث عن الماضى .

(تتطلع إلى الأبواب بقلق)

الخطيبة : هى على حق ، يجب ألا أوجه اليك ولا كلمة واحدة ، لكن جرأتك تستفزنى ؛ أتجرؤ على المجىء لرؤيتى ، ومشاهدة زفافى ، وتسأل عن الأزهار عن قصد ؟ أخرج من هنا ، وانتظر زوجتك عند الباب .

ليونردو : وإذن نحن كلانا لا نستطيع أن نتكلم بعضنا مع بعض ؟

الخادمة [بغضب] : كلا ، لا تستطيعان .

ليونردو : منذ زواجى وأنا أفكر ليل نهار فيمن كان المخطىء ، وفى كل مرة يبدو لى خطأ جديد يأكل ما سبق . لكن دائما هناك غلطة !

الخطيبة : إن الرجل ذو الفرس يعرف الكثير ، ويقدر على الكثير من أجل أن يضيق الخناق على فتاة وحدها فى الخلاء . لكن لى كرامتى وكبريائى . ولهذا أتزوج . وسأغلق على نفسى مع زوجى الذى ينبغى علىّ أن أضع حبه فوق كل شىء .

ليونردو : الكبرياء لن تنفعك فى شىء . (يقترب)

الخطيبة : لا تقترب !

ليونردو : إن الصمت والاحتراق الداخلى هما أسوأ عقاب يمكن تصوره ما ذا أفادتنى الكبرياء ، أفادتنى أنا ؟ لم أسعد لرؤيتك ، بل تركتك الليالى

الطوال لا يغمض لك جفن ، ولكن هذا لم يفد إلا فى أن جعلنى أحرق نفسى حياً . أنت تظنين أن الزمن يشفى ، وأن الجدران تحمى ، هذا ليس بصحيح . حينما تبلغ الأمور إلى المركز ، لا يستطيع شىء انتزاعها !

الخطيبة : (مضطربة) لا أستطيع الإصغاء إليك . لا أقدر على سماع صوتك : أشعر كأنى أشرب نبيذ النيسون ، فأنام على وسادة من الورود . إن صوتك يجتذبنى ، وأعلم أنى بسبيل أن أغرق ، ولكنى أنجذب إليه .

الخادمة (وقد أمسكت ليونردو من ظهر حلته) : اذهب فوراً .

ليونردو : هذه آخر مرة أوجه إليها فيها الكلام : لا تخافى .

الخطيبة : أنا أعرف أنى مجنونة ، وأعرف أنى قد مسنى الشيطان من فرط الاحتمال . وأجاهد للبقاء ها هنا : أسمعه وأراه يحرك ذراعيه .

ليونردو : كان لابد أن أقول لك هذه الأشياء حتى تستطيعى أن تستعيدى الهدوء . لقد تزوجت . فتزوجى أنت الآن .

الخادمة (لليونردو) : وهى الآن تتزوج !

الأصوات (تقترب) :

ألا هبى ، عروسه !
صباح العرس وافى .

الخطيبة :

ألا هبى ، عروسه !
(تمضى مسرعة إلى غرفتها)

الخادمة : اقترب المدعوون . (لليوناردو) لا تعاود الاقتراب منها .

ليونردو : اطمئنى ! (يخرج من ناحية اليسار) .

(النهار يبدأ فى البزوغ)

الفتاة الأولى (وهى تدخل) :

ألا هبى ، عروسه !
صباح العرس وافى
ندور الدائرية
وفى الأطنـاف باقة

أصوات :

ألا هبى عروســه !

الخادمة (وهى تصيح) :

ألا هبى بغصن
من الحب النضـير
ألا هبى بســاقٍ
وغصن الغـار وافد

الفتاة الثانية [وهى تدخل] :

ألا هبى بشعر
طويل مستجاد
وثوب من ثلوج
ونعـل من لجين
وتاج الياسمـين

الخادمة :

راعيه ، أى راعيه ، أى !

طلع البـــــدر علينا

الفتاة الأولى :

يا فتى ! « توسمبريرو »[١]

دعه فى الزيتون دعــه !

الفتى الأول [يدخل وهو برفع السمبريرو] :

استفيقى يا عروسه !

عُرسك الآن يدور

فى الحقول الناضرات

وعلى أطبــاق دليا

رُغُفٌ بالمجد تعجن

أصوات :

العروس

وضعت فى شعرها التاج الجميل

والعريس

استباها فى خيوط من نضار

الخادمة :

---

(١) [أى قبعتك التى من نوع السمبريرو] .

بالتُّرُنجان جفا العِرْسَ الرقاد

الفتاة الثالثة [وهى تدخل] :

وبالنارنج أهداها الخطيب

مُدِيّاً ثم فرشاً للموائد

[يدخل ثلاثة من المدعوين] .

الفتى الأول :

استفيقى يا حمامة !

بدد الفجر ظلاماً فى الحقول .

مدعو :

العروسه الأنيسه
إنها اليوم فتاة
وغداً تصبح ربة

الفتاة الأولى :

انزلى سمراء جُرِّى

ذيل ثوب من حرير

مدعو :

انزلى سمراء ، هيا

فالندى فى الصبح وافى

الفتى الأول :

إيه « سنيورا » أفيــقى
حمـــــل النسم الأزاهر

الخادمة :

أريد تطريز دَوح
بأشرطاتٍ تَدمّى (١)

وفى الشريط غرام

وحوله التصفيق

أصوات :

استفيقى يا عروسة !

الفتى الأول :

إن صبح العرس وافى

مدعو :

فى صباح الزفاف تبدين فتنة
مثل زهر الجبال أو زوج قائد

الوالد [يدخل] :

زوجَ قائد
يأخذ العريس
كنزه الثيران

(١) [أى لونها أحمر كالدم] .

الفتى الثالث :

العريس البطل

مثل زهر الذهب

حين يمشي ترى

حوله ازدهر

الخادمة :

آه ! يا بنتى اللطيفة

الفتى الثانى:

استفيقى يا عروسة

الخادمة :

آه ! يا ريا المفاتن

الفتاة الأولى :

قد دعاك العرس من كل النوافذ

الفتاة الثانية :

اظهرى يا عروسة

الفتاة الأولى :

اظهرى ! اظهرى !

الخادمة :

وليدق الناقوس دقاً فدقاً

الفتى الأول

فلتجىء ها هنا ! فلتجىء

الخادمة :

نهض الزفاف كأنه الثور المتين .

[تظهر العروسة . تلبس ثوبا أسود موافقا لموضة سنة ١٩٠٠ ، له ذيل طويل ، وتحيط به ثنايا دائرية من الشاش المتثنى والدنتلة القاسية . وعلى شعرها يبرز إكليل الأزهار . القيثارات تعزف . والفتيات يقبلن العروسة] .

الفتاة الثالثة : ما أطيب رائحة شعرك ! أى عطر وضعته ؟

العروسة [وهى تضحك] : لم أضع أى عطر !

الفتاة الثانية [وهى تنظر إلى ثوبها] : إن ثوبك من قماش لا مثيل له .

الفتى الأول : ها هو العريس

العريس : سلام عليكم !

الفتاة الأولى (وهى تضع زهرة فى أذنه) :

العريس البطل
مثل زهر الذهب

الفتاة الثانية :

إن من عينه

راحة تلتمع

(العريس يتوجه ناحية العروسة)

العروسة : لماذا لبست هذه الأحذية ؟

العريس : لأنها أشرح من الأحذية السود

زوجة ليوناردو (تدخل وتقبل العروسة) : سلام !

(الكل يتكلمون بضوضاء)

ليوناردو (يدخل وعليه سيما من يؤدى واجبا) :

فى صباح يا عروسه

نضع التاج برأسك

امرأة :

ليسرَّ الحقلُ بالماء

المدلى من شعورك

الأم (إلى الوالد) : حتى هؤلاء حضروا أيضاً ؟!

الوالد : إنهم من أسرة واحدة . إن اليوم يوم غفران وتسامح .

الأم : أنا صابرة ، ولكنى لا أغفر أبداً .

العريس : إن النظر إليك بالتاج يبعث السرور .

العروسة : فلنذهب إلى الكنيسة حالا .

العريس : هل أنت متعجلة ؟

العروسة : نعم. إنى أريد أن أكون زوجتك وأبقى وحدى معك ، لا أسمع صوتاً غير صوتك .

العريس : وأنا أيضاً أريد هذا .

العروسة : وأن لا أرى غير عيونك ، وأن أضمك بقوة حتى لو نادتنى أمى من قبرها لما استطاعت أن تنتزعنى من أحضانك .

العريس : إن سواعدى قوية . وسأضمك بين ذراعى أربعين سنة متواصلة .

العروسة (بطريقة درامية وهى تمسك به من ذراعه) : دائماً !

الوالد : هيا بنا بسرعة إلى الخيل والعربات ، فالشمس قد بزغت .

الأم : حذار ولا تكن هذه ساعة شؤم !

(الباب الكبير فى الأعماق يفتح . ويبدأون فى الخروج)

الخادمة (وهى تبكى) : لا تنسى أيتها الفتاة الطاهرة أنك تخرجين من بيتك كالنجمة .

الفتاة الأولى : طاهرة الجسم والثياب تخرجين من بيتك للزفاف (يخرجون) .

الفتاة الثانية : إنك خارجة من بيتك للذهاب إلى الكنيسة .

الخادمة : على الرمال تَسّاقط الأزهار .

الفتاة الثالثة : آه الفتاة البيضاء !

الخادمة : إن دنتلة شالها كالنسيم الأسمر .

(يخرجون . تسمع أصوات قيثارات وصنج ودفوف . ليونردو وزوجته يبقيان وحدهما)

زوجة ليونردو : هيا بنا .

ليونردو : إلى أين ؟

زوجة ليونردو : إلى الكنيسة . لكنك لن تذهب على فرس ، بل تعالَ معى .

ليونردو : فى عربة ؟

الزوجة : وإلا ، فكيف ؟

ليونردو : لست ممن يركبون العربات .

الزوجة : وأنا لست ممن يذهبن إلى الزفاف دون أزواجهن . لم أعد أحتمل أكثر من هذا .

ليونردو : وأنا أيضاً !

الزوجة : لماذا تتطلع إلىّ هكذا ؟ كأن فى كل عين شوكة !

ليونردو : هيا بنا .

الزوجة : لا أدرى ماذا يحدث . لكنى أفكر ، ثم لا أجرؤ على التفكير لست متأكدة إلا من شىء واحد ، لقد انتهى كل شىء بالنسبة إلى . بيد أن عندى ولداً ، وأنتظر ولداً آخر . هيا بنا . لقد لقيت أمى نفس المصير . لن أتحرك من هنا بدونك .

أصوات (من الخارج) :

وتذكرى عند الخروج وترك بيتك :
كالنجم يلمع تذهبين إلى الكنيسة

الزوجة :

كالنجم يلمع تذهبين إلى الكنيسة

وكذلك خرجت أنا من بيتى ، وكأن الحقل كله كان ملء فمى .

ليونردو [ناهضا] : هيا بنا .

الزوجة : لكن معى !

ليونردو : نعم [وقفة] هيا ! [يخرجان]

أصوات :

وتذكرى عند الخروج وترك بيتك :
كالنجم يلمع تذهبين إلى الكنيسة

اللوحة الثانية

(خارج كهف العروسة ، مدهون بالأبيض الرمادى والأزرق الباهت . أشجار تين شوكى كبيرة . الأفق من مسطحات بلون أشقر ، والكل جافى الشكل مثل منظر الفخار الشعبى)

الخادمة : (وهى ترتب أكوابا وصينيات على منضدة) :

تدور

وتدور الطاحون والماء يجرى
وأتى العرس ، فالغصون نضيرة
وبدا البـــــدر مشرقاً من طنوفه

(بصوت عال) : ضعوا المفارش !

(بصوت مؤثر) :

غنى العريســـان والأمواه جارية
والعرس وافى ، ورف الثلج والبرد
واللوزة المرة احــلولت من العسل

(بصوت عال) : هيئوا الخمر !

(بصوت شعرى) :

فتنة أنت فى البلاد جميـــــلة
أنظرى فى المياه كيف تسـير
أقبل العرس فاجمعى فضــل ثوبك
تحت جنح العريس قَـرِّى ببيتــك
إن هذا العريس مثل القمارى

صوته جمرة وهـــــذى الحقول
فى انتظار الدماء لما تسيل
وتدور الطاحون والمـاء يجرى
وأتى العرس والمياه تســـيل
فدعوا المـاء يستردّ بريقـه

الأم (وهى تدخل) : وأخيراً !

الوالد : هل نحن أول الحاضرين ؟

الخادمة : كلا ، فإن ليونردو وزوجتـه قد حضرا منذ لحظات ، كانا يعدوان كالعفاريت ، ووصلت الزوجة وهى تموت فزعاً ، وقد قطعا الطريق كأنهما جاءا راكبين فرساً .

الوالد : إن هذا الفتى يطلب شراً ، إذ دمه فاسد .

الأم : أى دم عنده : دم كل أسرته . بدأ هذا مع جده الذى بدأ الأسرة بالقتل ، وتسلسل هذا فى سلالته اللعينة من حملة السكاكين المنـافقين ذوى الابتسامات الزائفة

الوالد : دعينا من هذا !

الخادمة : كيف ندع هذا ؟

الأم : إن هذا يؤلمنى حتى نهاية عروقى . إنى لا أرى فيهم جميعاً غير اليد التى قتلوا بها زوجى وابنى . أنت ترانى : أفلا أبدو لك مجنونة ؟ نعم أنى مجنونة لأنى لم أصرخ بكل ما فى نفسى من صراخ . إن فى صدرى صرخة متأهبة دائماً ولـكنى أكتمها وأخفيها تحت نقابى . ولـكن لا بد من الصمت وسأحمل إلى الموتى . ثم إن الناس بعد ذلك ينتقدون . (تخلع نقابها)

الوالد : ليس هذا هو اليوم الذى تتذكرين فيه هذه الأمور .

الأم : حينما تنشب المناقشة ، لابد أن أتكلم . واليوم أكثر من أى يوم آخر ، لأنى سأبقى بعد اليوم وحيدة فى بيتى .

الوالد : فى انتظار الرفقة .

الأم : هذا هو رجائى : الأحفاد (يجلسان)

الوالد : بودى أن ينجبا أولاداً كثيرين . إن هذه الأرض تحتاج إلى سواعد غير مأجورة . فلابد من مكافحة الاعشاب الرديئة والشوك والحصى الذى ينبثق من حيث لا يدرى المرء؛ وأصحاب الأرض هم الذين يجب عليهم أن يعاقبوها ، ويقهروها ، ويحملوها على الإنبات . ولابد لهذا من أولاد ذكور كثيرين .

الأم : وبعض البنات أيضاً ! إن الذكور مثل الرياح ، وعليهم أن يستعملوا السلاح . أما البنات فيمكثن فى البيوت ولا يخرجن إلى الشارع أبداً .

الوالد (بسرور) : أعتقد أنهما سينجبان من كلا النوعين .

الأم : إن ابنى سيغطى بنتك جيداً . إنه من أصل أصيل . وكان فى استطاعة أبيه أن ينجب منى أولاداً عديدين .

الوالد : بودى لو حدث هذا فى يوم وأن يكون لهما فوراً ولدان أو ثلاثة.

الأم : لكن الأمر لا يجرى هكذا . إن هذا يحتاج الى وقت طويل . وكم هو مخيف أن يرى المرء الدم يسيل على الأرض . إنه كعين تجرى لمدة دقيقة ، ولكنه كلفنا سنوات طوالا . حينما أتيت لرؤية ابنى صريعاً فى وسط الطريق ، بللت يدى فى دمه وبقيت ألعقه بكل لسانى . لقد كان دمى أيضاً .

إنك لا تستطيع أن تتصور : أن التراب الذى تشرِّب هذا الدم سأضعه فى مصمد من الزمرد والبلور .

الوالد : الآن عليك أن تتعلق بأهداب الأمل : فابنتى حافلة وابنك فحل .

الأم : ولهذا يشيع الأمل فى نفسى . (ينهضان)

الوالد : أعدى ألواح القمح .

الخادمة : إنها جاهزة .

زوجة ليونردو (وهى تدخل) : ما أسعدهما !

الأم : شكراً .

ليونردو : هل سيقام حفل ؟

الوالد : قليل من الاحتفال . ولكن الناس لم يعودوا يعرفون الانبساط .

الخادمة : ها هم أولاء .

[يدخل المدعوون جماعات فى بهجة . ويدخل العريسان وذراع الواحد فى ذراع الآخر . ليونردو يخرج]

العريس : لم ير مثل هذا العدد فى أى عرس !

العروسة (باكتئاب) : أبداً

الوالد : كان شيئاً جميلا .

الأم : فروع بأكملها من الأسر جاءت .

العريس : أناس لم يخرجوا أبداً من بيوتهم .

الأم : إن أباك بذر كثيراً : وهأنت ذا تحصد !

العريس : إن لى أبناء عم لا أعرفهم .

الأم : كل الذين يقطنون السواحل .

العريس بابتهاج : كانوا يخافون من الخيل [يتحدثون فيما بينهم]

الأم للعروسة : فيم تفكرين ؟

العروسة : لا أفكر فى شىء

الأم : إن البركات ذوات وزن كبير . (يسمع عزف القيثارات)

العروسة : كالرصاص

الأم [بشدة] : لكن يجب ألا تكون ثقيلة عليك ، إذ ينبغى عليك أن تكونى خفيفة كالحمامة .

العروسة : هل تبقين ها هنا هذه الليلة ؟

الأم : لا . لا أريد أن أترك بيتى وليس فيه أحد .

العروسة : يجب عليك أن تبقى !

الوالد [الأم] : انظرى إليهم وهم يرقصون : إنها رقصات سكان السواحل .

[يدخل ليوناردو ويجلس ، وزوجته من خلفه فى وضع متشدد]

الأم : إنهم أبناء عم زوجى : إنهم كالصخور حين يرقصون .

الوالد : يشوقنى التطلع إليهم ، إن بيتى قد تغير حاله ! (يذهب) .

العريس (متطلعاً فى العروسة) : هل أعجبتك الأزهار ؟

العروسة (وهى تتطلع فيه بثبات) : نعم !

العريس : إنها كلها من الشمع ، وستعيش مدى الحياة . وكنت أود أن أغمر ثوبك كله بها .

العروسة : ولماذا ؟ لا حاجة بنا إلى ذلك .

(يخرج ليونردو من ناحية اليسار)

الفتاة الأولى : سنرفع دبابيس التاج .

العروسة (للعريس) : سأعود فوراً .

زوجة ليونردو (للعريس) : أرجو أن تعيش سعيداً مع ابنة عمى .

العريس : بكل تأكيد .

زوجة ليونردو : ستعيشان معاً ها هنا دون أن تخرجا من البيت أبداً . وسيكون بيتكم سعيداً . كم بودى أنا لو عشت هكذا ، بعيداً !

العريس : لماذا لا تشترون أرضاً ؟ إنها ليست غالية فى الجبل ، والأولاد يتربون فيها خيراً من أى مكان آخر .

زوجة ليونردو : ليس لدينا مال ، ولا أحسب أن سيكون لدينا قريباً !

العريس : لكن زوجك رجل مجد .

زوجة ليونردو : صحيح ؛ ولكنه يحب التنقل كثيراً من شىء إلى آخر . إنه ليس رجلا هادئاً .

الخادمة : ألا تتناولين شيئاً ؟ سأعطيك بعض الفطائر المعجونة بالنبيذ

لتعطيها لأمك ! إنها تحبها كثيراً .

العريس : أعطيها ستة أسداس .

زوجة ليونردو : سدس واحد يكفي .

العريس : ليس كل يوم فرحاً .

زوجة ليونردو (للخادمة) : أتعرفين أين ليونردو ؟

الخادمة : لم أره .

العريس : لا بد أنه مع المدعوين .

زوجة ليونردو : سأذهب لأرى (تخرج)

الخادمة : كل هذا بديع .

العريس : وأنت ، ألا ترقصين ؟

الخادمة : لا يدعوني أحد للرقص .

(تمر فتاتان في الخلف ، وطوال هذا الفصل يدخل ويخرج ويتلاقى أناس كثيرون) .

العريس (بابتهاج) : إنهم لا يفهمون . إن العجائز النضرات مثلك يرقصن خيراً من الفتيات .

الخادمة : هل تخبرني أنا ؟ يالأسرتك ! كلهم رجال في رجال . حضرت عرس جدك ! ياله من رجل ! وكأن جبلا هو الذي كان يتزوج !

العريس : إن قامتي أصغر من قامته .

الخادمة : لكن في عينيك نفس البريق . والبنية ؟

العريس : إنها تخلع تاجها .

الخادمة : آه ! لما كنت لن تنام الليل فقد أعددت « جمبون » وأكوابا كبيرة من الخمر المعتق ، هناك فى القسم الأدنى من الخزانة . عساك تحتاج إلى ذلك .

العريس (باسماً) : أنا لا آكل ليلا .

الخادمة (بخبث) : إذا كنت أنت لا تأكل ، فالزوجة يمكن . . . (تخرج) .

الفتى الأول (داخلا) : يجب أن تشرب معنا !

العريس : إنى أنتظر العروسة .

الفتى الثانى : ستكون لك فى الفجر .

الفتى الأول : تلك أجمل لحظة .

الفتى الثانى : تعال لحظة .

العريس : هيا بنا .

(يخرجان . تسمع ضوضاء الاحتفال . تدخل العروسة . ومن الجانب المقابل تدخل فتاتان تجريان للقائها) .

الفتاة الأولى : لمن أعطيت دبوسك الأول ؟ لى ؟ أولها . . .

العروسة : لا أذكر .

الفتاة الأولى : إنك أعطيته لى ها هنا .

الفتاة الثانية : وأعطيتنى إياه أمام المذبح .

العروسة (بقلق وصراع داخلى عنيف) : لا أدرى .

الفتاة الأولى : أنا كنت أريد منك أن ...

العروسة (مقاطعة) : هذا لا يعنينى . يجب أن أفكر .

الفتاة الثانية : عفواً !

(ليونردو يقطع خلف المسرح)

العروسة [تبصر ليونردو] : وهذه اللحظات لحظات اضطراب وارتباك .

الفتاة الأولى : نحن لا نعرف عنها شيئاً !

العروسة : ستعرفنها حين يأتى دوركم . إن هذه القررات تكلف كثيراً .

الفتاة الأولى : هل أنت غاضبة ؟

العروسة : لا ، عفوا .

الفتاة الأولى : عفوا عماذا ؟ كلا الدبوسين يمكن أن يجعلنا نتزوج فى نفس السنة ، أليس كذلك ؟

العروسة : نعم كلاهما .

الفتاة الأولى : لكن إحدانا ستتزوج أسرع قليلا من الأخرى .

العروسة : هل أنتما متعجلتان هكذا ؟

الفتاة الثانية (بخجل) : نعم !

العروسة : لماذا ؟

الفتاة الأولى (وهى تعانق الأخرى) : لـكن ...

(تخرجان مسرعتين . والعريس يأتى من الخلف بهدوء ، ويضم العروسة بين ذراعيه)

العروسة (بوثبة عالية) : دعنى .

العريس : هل أنت خائفة منى ؟

العروسة : آه ! أهو أنت ؟

العريس : ومن عسى أن يكون إذن ؟ (صمت) ما كان يمكن أن يكون غير أبيك أو أنا .

العروسة : صحيح .

العريس : لـكن أباك ما كان ليضمك بكل هذه القوة .

العروسة (بحزن) : طبعاً

العريس : إنه عجوز . (يضمها بشدة فيها شىء من الغلظة)

العروسة : اتركنى .

العريس : لماذا ؟ (يتركها)

العروسة : ولـكن ... الناس ... يمكن أن يرونا .

(تمر الخادمة فى الخلف دون أن تنظر إلى العريسين)

العريس : ثم ماذا ؟ لقد تلقينا البركه .

العروسة : نعم . ولـكن اتركنى ... إلى ما بعد ..

العريس : ماذا بك ؟ يبدو عليك سيما الهلع .

العروسة : لا ، لاشيء . لا تذهب . (تدخل زوجة ليوناردو)

زوجة ليوناردو : لا أريد أن أقاطعكما .

العريس : كلا ...

زوجة ليوناردو : هل مر زوجي من هنا ؟

العريس : كلا .

زوجة ليوناردو : إني لا أراه ، وفرسه ليس فى الاسطبل .

العريس (بابتهاج) : لعله يقوم بنزهة قصيرة على فرسه

(تخرج زوجة ليوناردو قلقة . تدخل الخادمة)

الخادمة : أنت مبسوط من كل هذه المجاملات ؟

العريس : ولكني بدأت أشعر بأن هذا فيه الكفاية . إن العروسة متعبة قليلا .

الخادمة : ما هذا يا فتاة ؟

العروسة : أشعر بضربات فى صدغى .

الخادمة : إن عروسة من هذه الجبال يجب أن تكون قوية (للعريس) : أنت وحدك الذى يستطيع أن يشفيها ، لأنها لك . (تخرج وهى تعدو)

العريس (وهو يعانقها) : هيا بنا إلى الرقص (يقبلها)

العروسة (فى جزع) : أود أن ألقى بنفسى فى الفراش قليلا .

العريس : سأرافقك .

العروسة : أبداً ! وكل هؤلاء الناس هنا ؟ ماذا عسى أن يقولوا حينئذ ؟ دعنى أسترح .

العريس . كما تحبين . وآمل أن تتحسن حالك هذا المساء !

العروسة (عند الباب) : فى المساء ستكون حالى أحسن .

(تدخل الأم)

الأم . ولدى ؟

العريس : أين أنت !

الأم : فى كل هذه الجلبة . هل أنت راض ؟

العريس : نعم .

الأم : وزوجتك ؟

العريس : تستريح قليلا . إنه يوم متعب للعرائس .

الأم : يوم متعب؟ إنه اليوم الحسن الوحيد . لقد كان بالنسبة إلى كميراث. (تدخل الخادمة وتتجه إلى غرفة العروسة) إنه حرث الأرض وغرس أشجار جديدة .

العريس : أراحلة أنت هذا المساء ؟

الأم : نعم . يجب أن أبقى فى بيتى .

العريس : وحدك ؟

الأم : وحدى ، لا ، لأن فى رأسى أشياء كثيرة ورجالاً ومعارك .

العريس : معارك ليست بعد معارك .

(تدخل الخادمة بسرعة ثم تختفى فى الخلف وهى تعدو)

الأم : المرء يكافح طالما كان حياً .

العريس : أما أنا فكنت دائماً مطيعاً لك !

الأم : حاول أن تكون دائمـاً لطيفاً مع زوجتك . وإذا رأيتها يوماً متكبرة أو غاضبة ، لاطفها ملاطفة تضايقها بعض المضايقة : عناق عنيف ، عضة ، بعدها قبلة رقيقة . ولا تدعها تنفر منك ، بل دعها تشعر فيك بالرجل والسيد الآمر . هكذا كان أبوك يسلك معى . وكما أنه غير موجود ، فعلى أنا أن أعلمك سر القوة .

العريس : سأفعل دائماً كل ما تأمرين به .

الوالد (يدخل) : وابنتى ؟

العريس : فى غرفتها . (يخرج الوالد)

الفتاة الأولى : فليأت العريسان ، لنرقص دورة .

الفتى الأول (للعريس) : ستقود الرقصة .

الوالد (يدخل) : إنها ليست فى غرفتها .

العريس : صحيح ؟

الوالد : لابد أن تكون فى الشرفة .

العريس : سأرى . (يخرج ، ضوضاء ، قيثارات)

الفتاة الأولى : لقد بدأوا .

العريس (يدخل) : إنها ليست هناك .

الأم (بقلق) : صحيح ؟

الوالد : إلى أين يمكن أن تكون قد ذهبت ؟

الخادمة (تدخل) : أين البُنَيَّة ؟

الأم (بجد) : لسنا نعلم .

(يخرج العريس . يدخل ثلاثة من المدعوين)

الوالد (بصورة درامية) : لكن ، أليست فى الرقص ؟

الخادمة : لا ، ليست فى الرقص .

الوالد (باحتداد) : فيه ناس كثيرون ، انظروا !

الخادمة : أنا ذهبت لأرى .

الوالد (بصورة أسيانة) : أين هى إذن ؟

العريس (يدخل) : لا أحد . إنها ليست موجودة فى أى مكان .

الأم (للوالد) : ما هذا ؟ أين ابنتك ؟

(تدخل زوجة ليوناردو)

زوجة ليوناردو : لقد هربا ! هى وليوناردو ! على فرس ! وكلاهما ملتصق بالآخر ! يتنفسان نفس الأنفاس !

الوالد : هذا ليس بصحيح ! ابنتى ، أبداً !

الأم : بل هى ابنتك ، ثمرة أم شريرة . وهو أيضاً ، هو . لكنها أصبحت زوجة ابني !

العريس (يدخل) : فلنطاردهما ! مَنْ عنده فرس ؟

الأم : مَنْ عنده فرس الآن فوراً ؟ مَنْ عنده فرس ؟ سأفديه بكل ما أملك ، بعينى ، بلسانى . .

صوت : ها هنا فرس !

الأم (لابنها) : اذهب وراءهما ! (يخرج مع شابين) كلا ! لا تذهب ! هؤلاء الناس سريعون إلى القتل وبإتقان .. لكن نعم ! هيـــا ! اجرِ ! وأنا من ورائك . . .

الوالد : لا يمكن أن تكون هى ! من يدرى لعلها ألقت بنفسها فى الجب !

الأم : فى الماء تلقى بأنفسهن الفتيات الشريفات الطاهرات ، أما هى فلا ! لكنها مع ذلك زوجة ابنى . أصبح ها هنا الآن فريقان ! فريقان ! (يدخـلون جميعاً) فريق أسرتك ، وفريق أسرتى . اخرجوا جميعاً من هنا . ولننفض غبار أحذيتنا . لنذهب لنجدة ابنى (ينقسم الناس فريقين) إن له أنصاراً عديدين : أولاد عمه الساحليون ، والذين يسكنون فى الداخل ، اخرجوا من هنا ! اسلكوا كل سبيل ! إن ساعة الدم قد أزفت . فريقان : أنت مع فريقك ، وأنا مع فريقى ! هيا إلحقوا بهما ! هيا !

ســتار . .

الفصل الثالث

اللوحة الأولى

(غابة . الظـلام مخيم . جذوع كبيرة رطبة . جو يشيع فيه الرعب والقلق . كمانان . يدخل الحطابون)

الحطاب الأول : هل وجدوهما ؟

» الثانى : لا . لـكنهم يبحثون عنهما فى كل مكان .

» الثالث : سيعثرون عليهما .

» الثانى : صه !

» الثالث : ماذا ؟

» الثانى : يبدو أنهم قادمون من جميع النواحى فى آن واحد .

» الأول : حينما يطلع القمر ، سيرونهما .

» الثانى : كان ينبغى أن يدعوهما وشأنهما .

» الأول : العالم كبير . والـكل يستطيعون أن يعيشوا فيه .

» الثالث : لـكنهم سيقتلونهما .

» الثانى : ما دام يحب كلاهما الآخر فقد أحسنا بالهرب .

» الأول : لقد كبتا ما فى نفسيهما طالما استطاعا ذلك ؛ لـكن الدم غلب .

» الثالث : الدم !

الحطاب الأول : ينبغى سلوك سبيل الدم .

« الثانى : لكن الأرض تتشرب الدم الذى يسيل .

« الأول : أوه ! ولكن الموت بنزيف الدم خير من العيش بدم فاسد .

« الثالث : صه !

« الأول : هل تسمع شيئاً ؟

« الثالث : أسمع الجداجد ، والضفادع ، والليل المترصد .

« الأول : لكن هل تسمع صوت الفرس ؟

« الثالث : كلا .

الحطاب الأول : فى هذه الساعة لا بد أنه يغازلها .

« الثانى : كان جسمها له ، وجسمه لها .

« الثالث : إنهم يبحثون عنهما وسيقتلونهما .

« الأول : لكن حين يعثرون عليهما سيكون دمهما قد امتزج فعلا ؛ سيكونان مثل إنائين فارغين ، وجدولين ناضبين .

« الثانى : فى السماء غيوم كثيرة ، فمن الممكن ألا يطلع القمر .

« الثالث : بقمر أو بدون قمر سيعثر العريس عليهما . لقد رأيته خارجاً وكأنه نجم ثائر . كان وجهه بلون الرماد ، ويحمل علامة مصير أسرته .

« الأول : أسرة أولئك الموتى فى الطريق .

« الثانى : نعم .

الحطاب الثالث : هل تعتقد أنهم سيفلحون فى تحطيم الدائرة ؟

« الثانى : هذا صعب . يوجد بنادق وسكاكين فى دائرة محيطة قطرها عشرة فراسخ .

« الثالث : هل لديه فرس جواد ؟

« الثانى : نعم ؛ لكنه يحمل امرأة .

« الأول : اقتربنا .

« الثانى . شجرة ذات أربعين فرعاً . سنقطعها عما قليل .

« الثالث : بزغ القمر ، فلنسرع

(عن يسار ينبثق نور)

الحطاب الأول :

أيها البدر المضىء
بين أوراق كبيره

« الثانى :

فى دماك الياسمين !

الحطاب الأول : أيها البدر الوحيد
بين أوراق نضيره

الحطاب الثانى :

فضة فى وجه العروسة

الحطاب الثالث :

أيها البدر الخبيث
أترك الظل الوريف — للأحبة

الحطاب الأول :

أيها البدر الحزين
اترك الظل الوريف — للأحبة

(يخرجون . فى الناحية اليسرى يظهر القمر . القمر حطاب شاب ذو وجه أبيض . المسرح يتخذ لوناً أزرق حامياً)

القمر :

أنا البلشون المختبىء على الماء
أنا عيون الكاتدرائيات
أنا الفجر المتوهم فى الأوراق
لن يستطيعا الهروب !
من ذا الذى يختبىء ؟
من الذى يتنهد بين أشواك الوادى ؟
إن القمر يترك سكيناً فى الهواء
تترصد كالرصاص وتود أن تتحول إلى آلام دماء
دعونى أدخل ! إنى أبترد على الجدران والبلّور !
افتحوا السطوح والصدور
حيث أستطيع أن أستدفىء

إنى أبترد ورمادى المؤلف من المعادن الناعسة

يبحث فى الجبال والطرقات عن نار تتقد فى الأعالى

لكن الثلج يحملنى على عاتقه اليشبى[1] ويغمرنى

فى ماء المستنقعات البارد القاسى

لكن خدّىّ فى هذه الليلة سيكون فيهما دم أحمر

أنا والقصب الملتف الذى تراوحه الريح بأقدامها الضيقة

لا ظل ولا مخبأ يمكنهما أن يحتميا بهما منى !

أود أن أدخل فى صدر لأشعر بالدفء

أود قلباً حاراً يتدفق على جبال صدرى

دعونى أدخل ! آه ! دعونى !

(موجهاً الكلام إلى الغصون) :

لا أريد ظلالا ؛ فينبغى أن تنفذ أشعتى فى كل النواحى

وحتى فى أعماق الجذوع المظلمة ضوضاء الأنوار .

لأن خدّىّ فى هذه الليلة وسيكون فيهما دم رقيق .

أنا والقصب الملتف الذى تراوحه الريح بأقدامها الضيقة .

من ذا الذى يختبىء ؟ فلتخرج ، هكذا آمر !

(١) [اليشب : jaspe حجر كريم من نوع السلكا حبوبه رفيعة متجانس التركيب ، ذو ألوان عديدة تبعاً لما يحتويه من الألومنيوم والحديد المتأكسد أو الكربون] .

لا ! لن يستطيعا الهرب !

سأجعل حمى من الماس تضئ على الفرس .

(يختفى القمر بين جذوع الأشجار ، والظلام يغمر المسرح من جديد . تدخل امرأة عجوز عليها أسمال بالية لونها أخضر غامق . إنها حافية . لا يكاد المرء يتبين وجهها بين ثنايا أسمالها)

الشحاذة : يختفى القمر ، وهم يقتربون . لن يذهبا بعيداً : وخرير النهر وحفيف الأغصان سيغطيان على صياحهما . ها هنا سيموتان . نعم هاهنا ، وعما قليل . آه ! كم أنا متعبة ؟ فلتفتح الصناديق ، والخيوط البيض على الأرض فى القبة تنتظر أجساماً ثقيلة ذوات أعناق دامية . فليكف عن اليقظة كل طائر ، وليجمع النسيم فى ثناياه الزفرات ، ولتهرب معها فى الغصون الكابية ، سيدفنان فى التراب الأبيض . هذا القمر ! هذا القمر ! (بلهفة) هذا القمر ! هذا القمر ! (يظهر القمر . ويعود الضوء الباهر)

القمر : إنهم يقتربون : بعضهم من ناحية القصب ، والبعض الآخر من ناحية النهر . سأجعل الحصى يلمع . ماذا تريدين ؟

الشحاذة : لا شيء .

القمر : إن الهواء يشتد ، يصبح ذا حدّين .

الشحاذة : أضيء الصديرى . افتح الزراير حتى تعرف السكاكين طريقها .

القمر : ولكنهم يبطئون فى الموت . فلتضع الدم بين أصابعى صفيره الرقيق .

أنظر : إن رماد أوديتى يستيقظ ، ويرتعد فى انتظار هذه العين من الدفقة المهتزة .

الشحاذة : لا تدعهم يعبروا النهر ! صه !

القمر : ها هم قادمون ! (يذهب القمر تاركا المسرح فى ظلام)

الشحاذة : بسرعة ! نور كثير ! أسمعتنى ؟ لن يستطيعا الهروب !

(يدخل العريس والفتى الأول . تجلس الشحاذة متدثرة بعباءتها)

العريس : من هنا

الفتى الأول : لن تعثر عليهما

العريس بقوة : لن أعثر عليهما ؟

الفتى الأول : لابد أنهما سلكا الشاطىء الآخر .

العريس : لا . لقد سمعت منذ هنيهة ركض فرس .

الفتى الأول : لابد أنه فرس آخر .

العريس : لا يوجد فى الدنيا غير فرس واحد ، هو هذا . هل فهمت ؟ إذا كنت تريد مصاحبتى ، فاسكت .

الفتى الأول : أنا كنت أريد ..

العريس : اسكت ! أنا واثق أننى سأجدهما هنا . هل ترى هذا الساعد ؟ إنه ليس ساعدى ، إنه ساعد أخى ، وأبى ، ساعد جميع الذين ماتوا من أسرتى إنه من القوة بحيث يستطيع أن يقتلع هذه الشجرة بجذورها ، لو شاء . هيا بنا ، لأن أسنان أهلى تنفذ كلها فى لحمى ، وتقطع أنفاسى .

الشحاذة (بتنهد) : آه !

الفتى الأول : هل سمعت ؟

العريس : اذهب إلى هنالك واستدر دورة .

الفتى الأول : إنها مطاردة حقيقية .

العريس : مطاردة ! أجمل مطاردة !

(يخرج الفتى . يتوجه العريس ناحية اليسار ويقع على الشحاذة)

الشحاذة : آه !

العريس : ماذا تريد ؟

الشحاذة : أنا مبتردة .

العريس : إلى أين أنت ذاهبة ؟

الشحاذة (بتنهد متواصل) : بعيداً ...

العريس : من أين قدمت ؟

الشحاذة : من هناك ... من بعيد جداً

العريس : هل رأيت رجلا وامرأة على فرس ؟

الشحاذة (بانتباه) : انتظر ... (تتطلع فيه) فتى وسيم . (تنهض) لـكنى أفضلك راقداً .

العريس : أجيبي : هل رأيتهما ؟

الشحاذة : انتظر ! إن لك منكبين عريضين . لماذا لا يعجبك أن ترقد على منكبيك بدلاً من المشى على قدميك اللطيفتين ؟

العريس (وهو يهزها) : إنى أسألك : هل رأيتهما ؟ هل مرا من هنا ؟

الشحاذة (بقوة) : لا ، لم يمرا ، لـكنهما ينزلان من الرابية . ألا تسمعهما ؟

العريس : كلا .

الشحاذة : ألا تعرف الطريق ؟

العريس : كلا ، ولكني سأمضى مهما يكن !

الشحاذة : اتبعنى ، فأنا أعرف هذه النواحى .

العريس (بصبرنافد) : هيا بنا ! من أية جهة ؟

الشحاذة (فى لهجة درامية) : من هناك !

(يخرجان بسرعة . يسمع من بعيد عزف كانين يعبران عن الغابة . يعود الحطابون ، وهم يحملون الفؤوس على أكتافهم ؛ يمرون ببطء بين جذوع الأشجار)

الحطاب الأول :

أيها الموت المبادى !
موت أوراق غليظة

الحطاب الثانى :

لا تدع دفق الدماء !

الحطاب الأول :

أيها الموت الوحيد
موت أوزاق ذوابل

الحطاب الثالث :

لا تغط العرس زهرا

الحطاب الثانى : أيها الموت الحزين
اترك الغصن النضير — للغرام !

الحطاب الأول : أيها الموت الخبيث

اترك الغصن النضير — للغرام !

(يخرجون وهم يتحدثون . يظهر ليونردو والعروسة)

ليونردو : اسكتى !

العروسة : من ها هنا سأمضى وحدى . اذهب أنت . أريد منك أن تعود أدراجك .

ليونردو : اسكتى !

العروسة : بأسنانك ، بيديك ، كما تقدر ، انتزع من رقبتى الشريفة معدن هذه السلسلة ، ودعنى منزوية فى عقر بيتى هناك . وإذا كنت لا تريد أن تقتلنى كأفعى صغيرة ، فضع فى يدى ، يدى أنا العروسة ، عمود البندقية . آه ! أى أنين وأى نار تصاعد فى رأسى ! أى قطع زجاج تلسعنى فى لسانى !

ليونردو : قضى الأمر . اسكتى . إنهم يطاردوننا . وعلىّ أن أحملك معى

العروسة : بالقوة إذن !

ليونردو : بالقوة ؟ أينا نزل من السلم أولا ؟

العروسة : أنا .

ليونردو : ومن الذى وضع لجاماً جديداً فى الفرس ؟

العروسة : أنا ، حقاً .

ليونردو : وأية أيد وضعت المهمازين ؟

العروسة : هذه الأيدى التى لك ، ولكنها تريد أن تحطم الغصون الزرق

فى عروقك ، ونشيشها . إنى أحبك ! إنى أحبك ! فابتعد عنى ! لو استطعت قتلك ، لـكفنتك فى كفن مطرز بالبنفسج.أى أنين ، وأى نارتصاعد فى رأسى !

ليونردو : أى قطع زجاج تلسعنى فى لسانى ! لقد أردت أن أنساك فأقمت سوراً من الحجر بين بيتك وبيتى . هذا صحيح ! ألا تذكرين ؟ وحينما أبصرتك من بعيد ذررت الرماد فى عيونى . لـكنى ركبت الفرس ، وحملنى الفرس إلى بابك . وبدبابيس من الفضة صار دمى أسود ، وبث النوم فى فمى أعشاباً رديئة . ليس الذنب ذنبى ، إنما ذنب الأرض ، وذنب هذا العطر الصاعد من نهديك وغدائرك .

العروس : آه ! ياله من جنون ! لا أريد أن أشاركك الفراش والطعام . ومع ذلك فإنى أود أن أكون معك النهار كله . إنك تجرنى ، وأنا أتبعك . أنت تقول لى : « اذهبى » وأنا أتبعك فى الهواء ، كأنى عــود من العشب . والتاج على رأسى تركت رجلا قاسياً وكل أقربائه فى وسط حفــل العرس . ستعاقب أنت ، ولـكنى لا أريد أن تعاقب أنت . دعنى ! انج بنفسك ! لا أحد ها هنا ليدافع عنك .

ليونردو : إن طيور الصباح تجثم على الأشجار . والليل يتقضى على حد الصخر . فلنذهب إلى الركن المظــلم الذى فيه أحبك أبداً . لا يهمنى الناس ولا سمومهم ! (يضمها بقوة) .

العروسة : سأرقد عند قدميك لأسهر على أحلامك ، عارية ، أتطلع إلى المروج ، (بلهجة ذرامية) كأنى كلبــة . لأنى فعلا كلبة . إنى أنظر اليك فيحرقنى جمالك .

ليونردو : إن النور يعانق النور . والشعلة الصغيرة تقتل سنبلتين فى وقت واحد . هيا بنا ... (يجرها) .

العروسة : إلى أين تجرنى ؟

ليونردو : إلى حيث لا يستطيع أن يصل إلينا أولئك الذين يطاردوننا ، فى مكان أستطيع أن أتطلع فيه اليك !

العروسة (بتهكم) : تنقل بى من ســـوق إلى سوق ، أنا عار النساء الفضليات ، وسيرانى الناس بمفارش الزفاف فى الهواء ترفرف كالأعلام .

ليونردو : وأنا أيضاً أود لو تركتك إذا كنت أفكر كما يفكر الناس . لـكنى سأذهب معك إلى حيث تذهبين . وأنت كذلك . اخطى خطوة . حاولى . إن مسامير القمر تتوسد ساقيك وخصرى .

(كل هذا المنظر عنيف شهوانى)

العروسة : أتسمع ؟

ليونردو : الناس قادمون .

العروسة : انج بنفسك ! من العدل أن أموت هاهنا ، وقدماى غائصتان فى الماء ، والشوك على رأسى . وستبكى علىّ الأوراق ، علىّ أنا الفاجرة العذراء .

ليونردو : اسكتى ! إنهم يصعدون.

العروسة : اذهب !

ليونردو : صمتاً ! حتى لا يسمعونا . هيا ، تعالى ، وأنت أمامى ، هيا ، قلت لك !

(تتردد العروسة)

العروسة : كلانا معاً .

ليونردو (وهو يضمها) : كما تشائين ، إذا فرقوا بيننا فمعنى ذلك أننى مت

العروسة : وأنا أيضاً أكون قد مُتُّ .

(يخرجان متعانقين . يظهر القمر بهدوء وبطء شديد . المسرح مضاء بضوء حار أزرق . وفجأة تنطلق صرختان شديدتان طويلتان ، وتتوقف الموسيقى فجأة . وعند الصرخة الثانية تظهر الشحاذة بظهرها . تفتح عباءتها وتبقى في الوسط مثل طائر ذى جناحين هائلين . يتركز ضوء القمر عليها . ثم تسقط الستارة فى صمت مطبق) :

ســــــتار

اللوحة الثانية

(غرفة بيضاء بعقود وجدران غليظة . عن شمال ويمين سلالم بيض . وفي الأعماق عقد كبير وجدار بنفس اللون . والأرضية بيضاء لامعة البياض . وهذه الغرفة البسيطة تبدو كأنها كنيسة . ليس فيها أي لون رمادي ، ولا ظل ، ولا أي شيء ضروري للمنظور . فتاتان تلبسان الأزرق الغامق تحلان كبة غزل من الصوف الأحمر) .

الفتاة الأولى :

كبة الغزل ، ما تريدين صنعه ؟

الفتاة الثانية :

ياسمين الرداء ، بلور ثوب
مولد في الصباح ، موت بظهر
خيط صوف ، والقيد في قدميك
باقة تستمد من مر غار .

البنت الصغيرة (تغني) : هل شهدت الزفاف ؟

الفتاة الأولى : كلا

البنت الصغيرة : وأنا أيضاً لم أشهده . ما ذا حدث بين ذاليات الكروم؟ ماذا جرى بين أغصان الزيتون ؟ ماذا حدث ، ولماذا لم يعد أحد ؟ هل شهدت الزفاف ؟

الفتاة الثانية : قلنا : لا !

البنت الصغيرة (وهي تخرج) : وأنا أيضاً لم أشهده .

الفتاة الثانية :

كبةَ الغزل ، ما تريدين شدْوه ؟

الفتاة الأولى :

جروح من شَمع

وآلام الريحان

النوم فى الصباح

وفى الليل السهاد

البنت الصغيرة (عند الباب) :

الخيط يصطدم بالحصى

والجبال الزرق تدعه يمر

اجر ، اجر ، اجر !

وفى النهاية يفلح فى وضع السكين وترك الخبز .

الفتاة الثانية :

كبة الغزل ، ما تريدين قوله ؟

الفتاة الأولى :

عاشق صامت

وعريس قرمزى

رأيتهما راقدين

على الشاطىء الصامت

[تتوقف وتتطلع فى كبة الغزل]

البنت الصغيرة (تظهر عند الباب) :

اجر ! اجر ! اجر !

المحيط حتى هنا .

أحس بقدومهما مغطيين بالطين

جسمان ممدودان

قماش من العاج

[تخرج . تظهر زوجة ليوناردو وحماته وهما فى فزع وجزع]

الفتاة الأولى : هل جاءوا ؟

الحماة (بمرارة) : لا ندرى شيئاً .

الفتاة الثانية : ما هى أخبار العُرس ؟

الفتاة الأولى : احكى .

الحماة (بجفاف) : لاشىء .

الزوجة : أريد الرجوع لأستطلع الأخبار .

الحماة (بشدة) : أنت، الزمى بيتك . شُجاعةً وحدك فى بيتك . لتشيخى فيه وتبكى . لكن من وراء باب مغلق . هو ، أبداً : لا حى ، ولا ميت . سنضع المسامير فى النوافذ ، وليهطل المطر ، ولينزل الليل على الأعشاب المرة .

الزوجة : ماذا عسى أن يكون قد حدث ؟

الحماة : لا يهم . ضعى نقاباً أسود على وجهك . أولادك هم أولادك أنت

وحدك . وعلى السرير ضعى صليباً من الرماد مكان مخدته .

(تخرجان)

الشحاذة عند الباب : لقمة خبز ، يا فتيات !

البنت الصغيرة : امشى !

(تتجمع الفتيات)

الشحاذة : لماذا ؟

البنت الصغيرة : لأنك تنوحين : امشى !

الفتاة الأولى : بنت !

الشحاذة : كان فى وسعى أن أطلب عيونك ! إن سرباً من الطير يتبعنى :
هل تريدين واحداً ؟

البنت الصغيرة : أريد الذهاب !

الفتاة الثانية [للشحاذة] : دعيها وشأنها .

الفتاة الأولى : هل أتيت عن طريق النهر ؟

الشحاذة : نعم أتيت عن هذا الطريق .

الفتاة الأولى (بخوف) : هل أستطيع أن أسألك ؟

الشحاذة : لقد رأيتهما ؛ عما قليل سيصلان إلى هنا : سيلان هادئان أخيراً
بين الصخور الضخمة ، رجلان بين أقدام الفرس . ميتان فى جمال الليل .

[بشغف] ميتان ، نعم ميتان .

الفتاة الأولى : اسكتي يا عجوز ، اسكتي !

الشحاذة : إن عيونهم كالأزهار الممزقة ، وأسنانهم كقطعتين من الثلج المتحجر . لقد مات كلاهما ؛ وثوب العروسة وشعرها الجميل ملطخان بدمائهما . أتوا بهما مسجيين تحت ردائين ، محمولين على أكتاف أقوى الشبان . هكذا كان ، ولا شيء أكثر من هذا . كان عدلا . وعلى زهرة الذهب رمل قذر .

[تخرج . يظل المسرح خالياً . تدخل الأم ومعها جارة . الجارة تبكي]

الأم : اسكتي .

الجارة : لا أستطيع .

الأم : قلت لك اسكتي [عند الباب] لا أحد هنا ؟ [تحمل يديها إلى جبينها] كان على ولدي أن يجيبني . لكن إبني لم يعد غير حفنة من الأزهار الجافة . ابني أصبح صوتاً رهيباً خلف الجبال . (بغوران ، للجارة) : هل ستسكتين ؟ لا أريد دموعاً في هذا البيت . إن دموعك أنت لا تجري إلا من العيون . أما دموعي أنا فتتصاعد من أخمص قدميّ حين أكون وحدي ، تصاعد من جذوري ، وتضطرم وتغلي أشد من الدم .

الجارة : تعالي إلى بيتي . لا تبقي هنا .

الأم : هنا ، هنا أريد البقاء . هنا أظل هادئة . إن الجميع ماتوا . سأنام في منتصف الليل ، سأنام دون أن أخاف من البندقية أو من السكين . غيري من الأمهات ينظرن من النوافذ التي تنهمر عليها الأمطار وهن ينتظرن عودة الابن . أما أنا فلا . سأجعل من نومي حمامة من العاج باردة تحمل كاميليات من البرد على المقبرة . مقبرة ؟ لا . مقبرة ؟ لا ، بل فراش من التراب ، فراش يضمهم ويهدهدهم في السماء (تدخل امرأة تلبس ثياب الحداد وتتوجه ناحية اليمين وتركع) . [للجارة]

نحى كفيك عن وجهك . أيام رهيبة تنتظرنا . لا أريد أن أرى أحداً . أنا والتراب ، والدموع وأنا . وهذه الجدران الأربعة . آه ! آه !

(تجلس متحجرة)

الجارة : اشفقى على نفسك .

الأم (وهى ترد شعرها إلى الوراء) : ينبغى أن أهدأ . (تجلس) لأن الجيران سيأتون ولا أريد أن يرونى شقية هكذا . ما أشقانى ! آه ، ما أشقانى ! امرأة لم يعد لها ولد ترفعه إلى شفتيها . . .

[تظهر العروسة . لم يعد عليها تاج الأزهار ، بل عليها شال أسود]

الجارة [تتعرف العروسة ، وبغضب] : إلى أين تذهبين ؟

العروسة : أنا آتية إلى هنا .

الأم [للجارة] : من هذه ؟

الجارة : ألا تتعرفين من هى ؟

الأم : كلا ، ولهذا أسأل من هى ، وإلا لغرست أسنانى فى رقبتها .

أيتها الأفعى ! [تتوجه إلى العروسة وعليها سيما العنف ولكنها تتوقف . للجارة] : ألا ترينها ؟ إنها هى التى تبكى وأنا الهادئة ، دون أن أقلع لها عينيها . أنا لا أفهم شيئاً . هل هى لم تكن تحب ابنى ؟ ولكن شرفها ؟

أين شرفها ؟ [تضرب العروسة ، فتقع هذه على الأرض]

الجارة : يا الهى ! [تحاول أن تحجز بينهما]

العروسة [للجارة] : أتركيها ؛ لقد أتيت هنا لتقتلنى وأدفن معهما . (للأم :) لكن لا بيديك ، بل بمنشار ، بمنجل ، وبشدة ، حتى يتكسر

الحديد على عظامى . اتركيها ! أريد أن تعرف أننى شريفة .

أجل ، قد أكون مجنونة . لكننى سأقبر دون أن يكون رجل قد تطلع فى بياض نهودى .

الأم : اخرسى ، اخرسى ! ماذا يهمنى من هذا ؟

العروسة : ألأنى هربت مع الرجل الآخر ، هربت ؟ [بجزع] وأنت أيضاً لو كنت مكانى لهربت معه . كنت فتاة تحترق ، تماؤنى الجراح باطناً وخارجاً . وكان ابنك كالماء العذب الذى كنت أنتظر منه الأولاد ، والأرض والصحة ؛ أما الآخر فكان كالنهر الغامض ، الحافل بالفروع ، الذى يحمل إلىّ ضوضاء قصبه وشدوه بين الأسنان ، وأنا جريت مع ابنك الذى كان مثل أبناء الماء ، بارداً ، بينما الآخر كان يبعث إلىّ بمئات من الطيور التى تمنعنى من السير وتترك على جروحى صقيعاً ، جروحى أنا المرأة المحطمة ، أنا الفتاة التى تداعبها النار . لم أرد ، اسمعينى جيداً ؛ لم أرد ، اسمعينى جيداً ؛ لم أرد . لقد كان خلاصى فى ابنك ، لكنى لم أخنه ؛ لكن ذراع الرجل الآخر جرتنى كموجة البحر ، أو كدفعة من رأس البغل ، وكانت ستجرنى دائماً ، دائماً ، دائماً ، حتى لو أصبحت عجوزاً يجرّنى من شعرى كل أولاد ابنك ! [تدخل جارة]

الأم : ليس الذنب ذنبها ، ولا أنا أيضاً [بتهكم] . من المذنب إذن ؟ إنها جبانة لعوب سيئة النوم تلك التى ترمى بتاج أزهارها لتبحث عن قطعة سرير تدفئه امرأة أخرى !

العروسة : اسكتى ، اسكتى ! انتقمى منى ! هأنذا ! أنظرى إلى عنقى إنه رقيق ، لن يكلفك من التعب أكثر من قطف زهرة داليا من بستانك . لكن هذا ، لا ! أنا شريفة بريئة براءة الطفل الوليد . وعندى القدرة على البرهنة على ذلك . أشعلى ناراً ، ولنضع أيدينا فيها : أنت عن ابنك ؛ وأنا عن جسمى : وستضطرين إلى انتزاعها قبلى أنا .

(تدخل جارة أخرى)

الأم : ماذا يهمنى من شرفك أنت ؟ وماذا يهمنى من موتك ؟ وماذا يهمنى أى شىء ؟ بوركت سنابل القمح ، لأنها تظل أولادى ؛ بورك المطر ، لأنه يجود وجه الموتى . والحمد لله الذى يجمعنا للراحة الأبدية .

(تدخل جارة أخرى)

العروسة : دعينى أبك معك !

الأم : ابكى . لكن عند الباب .

(تدخل البنت الصغيرة . العروسة تبقى عند الباب . الأم فى وسط المسرح)

الزوجة (تدخل وتتوجه نحو اليسار) : كان فارساً جميلا ، فأصبح الآن كومة من الثلج . كان يتجول بين الأعياد والغابات وأحضان النساء : والآن أصبح الطحلب يتوج رأسه .

العروسة : ياعباد شمس أمك ، يامرآة الأرض . ليوضع على صدرك صليب من الدفلى المرة ، وملاءة من الحرير اللامع تغطيه ؛ إن الماء يؤلف رثاء بين يديك الناعمتين .

الزوجة : آه ! ها قد أقبل أربعة فتيان أكتافهم تئن من التعب .

العروسة : آه ! أربعة فتيان يحملون الموت المعلق فى الهواء !

الأم : جاراتى !

البنت الصغيرة (عند الباب) : هم يحملونهما وقد قدموا .

الأم : دائماً نفس الشىء : الصليب ، الصليب !

نسوة : مسامير رقيقة

وصليب رقيق

واسم يسوع الرقيق

العروسة : فَـليحـْـم الصليب الموتى والأحياء على السواء .

الأم : يا جارات أكان مقدراً أنه فى ذات يوم بين الساعة الثانية والساعة الثالثة ، وبسكين ، بسكين صغيرة ، سيقتل كل من العاشقين الآخر .

نعم بسكين ، سكين صغيرة لا تكاد تملأ الـكف ، ولـكنها تنفذ بخفة فى اللحم على حين غرة ، ثم تقف فى الموضع الذى يرتجف عنده جذر الصحة الغامض .

العروسة : إنها سكين ، سكين صغيرة لا تكاد تملأ الـكف ؛ سمكة بغير فلوس ، وبغير نهر ؛ وفى اليوم المحدد ، بين الساعة الثانية والساعة الثالثة ، بهذه السكين الصغيرة يجمد رجلان إلى الأبد ، وتصفر شفاههما .

الأم : لا تكاد تملأ الـكف ، لـكنها تنفذ باردة فى اللحم على حين غرة ؛ ثم تقف فى الموضع الذى يرتجف عنده جذر الصحة الغامض .

(الجارات راكعات يبكين)

ســـــتار

ختـــام

الإسكافية العجيبة

هزلية عنيفة فى فصلين واستهلال

(١٩٣٠)

الأشخاص

اسكافية	جارة متبدثرة بالأصفر	اسكافى
جارة متدثرة بالأحمر	المتدينة الأولى	صبى
« « بالبنفسجى	المتدينة الثانية	دون ميرلو
« « بالأسود	زوجة خازن الكنيسة	شاب ذو حزام
« « بالأخضر	المؤلف	« « قبعة

جارات ؛ متدينات ؛ قسس ، شعب

استهلال

(ستارة رمادية . يظهر المؤلف . يدخل بسرعة . يحمل ورقة فى يده)

المؤلف :

أيها الجمهور المحترم ... (وقفة) كلا ، الجمهور المحترم كلا ، الجمهور فقط وليس هذا لأن المؤلف لا يعد الجمهور محترماً ، بل على العكس تماماً ، ولكن وراء هذه الكلمة رعدة خوف رقيقة ونوعاً من التوسل والرجاء إلى السامعين أن يكونوا كرماء مع تمثيل الممثلين وصناعة العبقرية . إن الشاعر لا يستجدى الإحسان بل الإنتباه ، ما دام قد اجتاز منذ زمن طويل الحاجز الشائك للخوف الذى يشعر به المؤلفون وهم فى القاعة . وبسبب هذا الخوف غير المعقول وبسبب كون المسرح فى أحيان كثيرة عملية تجارية ، فإن الشعر ينسحب من المسرح باحثاً عن مجالات أخرى لا يفزع فيها الناس من كون شجرة —مثلا— تتحول إلى كرة من الدخان أو أن ثلاث سمكات ، بفضل يد وكلمة ، تتحول إلى ثلاثة ملايين سمكة لتسكين غائلة جوع عدد كبير من الناس . لقد فضل المؤلف أن يضع النموذج الدرامى فى الإيقاع الحى لإسكافية من الشعب . وفى كل موضع ينبض هذا المخلوق الشعرى ، الذى ألبسه المؤلف ثوب إسكافية ، بانغام الأغانى أو الحكاية البسيطة . وليس للجمهور أن يستغرب إذا بدت هذه الإسكافية عنيفة أو اتخذت مواقف حادة ، لأنها تناضل دائماً ، تناضل مع الواقع المحيط بها وتناضل مع الخيال حينما يصبح الخيال واقعاً مرئياً . (تسمع أصوات الإسكافية : أريد الخروج ! هأنذا ذاهبة !) لا تتعجلى الخروج هكذا ؛ إنك لا تسحبين ثوباً بذيل طويل وريش عجيب ، بل ثوباً ممزقاً ، أتسمعين ، ثوب إسكافية .

(صوت الإسكافية من الداخل: أريد الخروج !) سكوت (تنفرج الستارة ويتجلى الديكور فى ضوء هادىء) . هكذا يطلع النهار كل يوم على المدائن ، وينسى الجمهور دنيا أحلامه البسيطة ليدخل فى الأسواق كما تدخلين أنت

فى بيتك ، على المسرح ، أيتها الاسكافية العجيبة . (يتزايد النور) ولنبدأ الرواية . أنت قادمة من الشارع (تسمع أصوات تتصارع . مخاطباً الجمهور :) طبتم مساء ! (يخلع القبعة الاسطوانية ، وهذه تلمع من الداخل بنور أخضر ؛ المؤلف يحنيها فتخرج منها دفقة من الماء . يتطلع المؤلف — متضايقاً — فى الجمهور وينسحب متقهقراً ، مليئاً بالتهكم) عفواً يا سادة ! (يخرج) .

الفصل الأول

[دكان وبيت اسكافى . منضدة وأدوات . السكن كله أبيض . نافذة كبيرة وباب ؛ قاع المسرح يمثل شارعا أبيض فيه أبواب صغيرة ونوافذ رمادية . بابان عن يمين وشمال . كل الزخرفة تشيع جواً من التفاؤل والانشراح ، يتجليان حتى فى أصغر التفاصيل . ويغزو المسرح ضوء لطيف برتقالى اللون حافل بضوء ساعة العصر

المنظر الأول

وحين ترتفع الستارة تكون الاسكافية قادمة من الشارع هائجة ثم تتوقف عند الباب ؛ عليها ثوب أخضر صارخ ، وشعرها معقوص إلى الخلف ، وتزينه وردتان كبيرتان . وتبدو عليها سيماء الفظاظة والرقة معاً]

الإسكافية : اخرس ، يا طويل اللسان ، يا أبو ذؤابة ! ... إذا كنتُ فعلت ذلك ... إذا كنت فعلت ذلك ، فلأن هذا يسرنى ... وإن لم تدخل فى جحرك جررتك على وجهك أيها الثعبان الأغبر . إنى أقول هذا حتى تسمع كل اللواتى يتسمعن من وراء النوافذ . نعم ! إن التزوج بعجوز أفضل من التزوج بأعور مثلك . لا أريد أن أتكلم معك بعد ، لا معك ولا مع غيرك ، ولا مع أى واحد ، أى إنسان . (تدخل ضاربة الباب بعنف) أنا أعرف أنه لا يمكن الكلام مع هذا الصنف من الناس ، ولو للحظة واحدة ... لكن الغلطة غلطتى غلطتى أنا ... كان من واجبى أن أبقى فى بيتى مع ... لا أريد أن أصدق ذلك ... مع زوجى . لو قيل لى يوماً إنى أنا ، أنا الجميلة ، أنا الشقراء ذات العينين السوداوين ، بقامتى هذه ولونى الفاتن ، لو قيل لى يوماً إنى سأتزوج من ... لكنت قد شددت شعرى (تبكى . طرق على الباب) من ؟ (لا جواب . طرق من جديد) من ؟ (مهتاجة)

المنظر الثانى

الصبى (بصوت مرتجف) : صديق .

الاسكافية (وهى تفتح له) : أهو أنت ؟ (تتأثر وترق)

الصبى : نعم يا سيدتى الاسكافية . أكنت تبكين ؟

الاسكافية : لا ، إنها ذبابة من النوع الذى يطن هكذا : يى ى ى ى ، لسعتنى فى عينى هذه .

الصبى : أتريدين أن أنفخ عليها ؟

الاسكافية : لا يا ولدى ، لقد زال السوء ... (تربت عليه) ماذا كنت تريد ؟

الصبى : لقد أحضرت إليك هذه الأحذية اللامعة ، وهى تساوى خمسة دنانير ، أحضرتها لكى يصلحها زوجك . إنها أحذية أختى الكبيرة ، تلك التى لها بشرة رقيقة وتضع شريطين — إن عندها اثنين — يوماً تضع الواحد ويوماً آخر تضع الآخر ، فى خصرها .

الاسكافية : دعها هناك وستصلح .

الصبى : قالت لى أمى إنه لا ينبغى أن يضغط زوجك عليها كثيراً بالمطرقة حتى لا تفسد فهى لماعة .

الاسكافية : قل لأمك إن زوجى يعرف مهنته جيداً ، وليتها هى تعرف كيف تتوبل أطعمتها بالغار والفلفل كما يعرف زوجى كيف يصنع الأحذية !

الصبى (يكاد يجهش باكياً) : لاتغضبى منى ، ليست هذه غلطتى ، وأنا من ناحيتى أستذكر دروس النحو كل يوم جيداً .

الاسكافية (برقة) : يا ولدى ! يا حبيبى ! إنى لا أحمل شيئاً ضدك . (تقبله) خذ هذه اللعبة . هل تسرك ؟ خذها لك إذن .

الصبى : عن طيب خاطر ، لأنى أعرف أنك لن تنجبى أبداً أولاداً ...

الاسكافية : من قال لك هذا ؟

الصبى : أمى قالت ذلك منذ يومين ، قالت : « لن تنجب الاسكافية أولاداً » فتضاحكت خوانى ورفائيلة الجارة .

الاسكافية (بعصبية) : أولاد ؟ إنى أستطيع أن أنجب أولاداً أجمل منهن جميعاً وأشرف وألطف ، لأن أمك ... كما تعرف ...

الصبى : استردى إذن لعبتك ، لا أريدها !

الاسكافية : كلا ، كلا ، احتفظ بها يا بنى ... ! ليس بينى وبينك أنت شىء !

المنظر الثالث

(الاسكافى يدخل عن يسار . يلبس سترة من القطيفة ذات زرار من الفضة ، وسروال ، ورباط عنق أحمر . يتوجه ناحية منضدة الشغل)

الاسكافية : ها أنت ذا !

الصبى (خائفاً) : فى حفظ الله . وداعاً ! تحياتى ! الحمد لله ! (يخرج مسرعا إلى الشارع

الاسكافية : وداعاً يا بنى ! لو كنت قد مت قبل مولدى ، لما عانيت هذه المحن والمتاعب . آه ! المال ، المال ! تبت يدا من اخترعه وكُفَّ بصرُه !

الاسكافى جالساً عند منضدته) : يا امرأة ، ماذا تقولين ؟

الإسكافية : شيء لا يهمك !

الاسكافى : أنا لا يهمنى أى شيء أبداً . لكن علىّ أن أتحمل كل شيء فى صمت .

الاسكافية : وأنا أيضاً أتحمل ... لا تنس أن عمرى ثمانى عشرة سنة .

الاسكافى : وأنا ... عمرى ثلاث وخمسون . ولهذا أسكت ، ولا أتأفف منك . أعرف هذا جداً ... ! إنى أشتغل لأجلك ... وليكن ما يكون ...

الاسكافية (وظهرها إلى زوجها ، ثم تتلفت وتقبل عليه بتأثر ورقة) : لا ، لا تقل هذا يا عزيزى الصغير !

الاسكافى : آه ! لو كان عمرى أربعين ، أو حتى خمسة وأربعين ! (يطرق بشدة على الحذاء بمطرقته)

الاسكافية (غاضبة) : هنالك أكون خادمتك ، أليس كذلك ، هذا جزاء لطفى ومودتى لك ... ! وأنا ؟ ألا أساوى شيئاً ؟

الاسكافى : يا امرأة ... اهدأى .

الاسكافية . أليست نضرتى ووجهى يساويان كل أموال الدنيا !

الاسكافى : يا امرأة ... ! لا تصرخى هكذا وإلا سمعنا الجيران !

الاسكافية : لعن الله الساعة التى وافق فيها اشبينى مانويل على الزواج .

الاسكافى : هل تريدين كوباً من عصير الليمون المنعش !

الاسكافية : يالى من بلهاء ! بلهاء ! بلهاء ! [تضرب نفسها على جبينها] بعد كل العشاق الذين جروا ورائى !

الاسكافى (راغباً فى ملاطفتها) : هذا ما يقوله الناس .

الاسكافية : الناس ؟ هذا معروف عند الجميع . خير هذه النواحي . لـكن أفضلهم عندى كان امليانو ... أنت عرفته ... امليانو الذى كان يركب فرساً أسود عليه سرج ملىء بالتزاويق والمرايا الصغيرة ، وكان يحمل دائماً عوداً من القصب فى يده ، وفى قدمه مهمازان من النحاس اللامع ! وما أروع المعطف الذى كان يلبسه فى الشتاء ! حناياه من القطيفة الزرقاء وعليه شرائط من الحرير !

الاسكافى : وأنا أيضاً كان عندى واحد من نفس النوع ... ممتاز رائع .

الاسكافية : أنت ؟ معطف مثل هذا ! ... دعك من هذه الأوهام ! إن معطفاً كهذا لم يلمس أبداً كتف إسكافى .

الاسكافى : لـكن ، يا امرأة ، ألا ترين ... ؟

الاسكافية (مقاطعة) : وقد خطبنى شخص آخر ... (يضرب الاسكافى على الحذاء بشدة) ... رجل من أسرة كريمة ... عمره ثمانى عشرة سنة ... عجيب! ثمانى عشرة سنة ! (الاسكافى يضطرب ويتضايق)

الاسكافى : وأنا أيضاً كان عمرى ذات يوم ثمانى عشرة سنة !

الاسكافية : أنت ! أنت لم يكن عمرك أبداً ثمانى عشرة سنة ! آه ! لقد كان يقول لى كلمات ... نعم ...

الاسكافى (يضرب الحذاء بشدة) : هل تخرسين ؟ أنت زوجتى ، شئت هذا أو أبيت ، وأنا زوجك . لقد كنت تتضورين جوعاً ، لا بيت لك ولا قميص . لماذا قبلتنى إذن ؟ يالك من هوجاء ، هوجاء ، هوجاء !

الاسكافية (مهتاجة ناهضة) : اخرس ! لا تجعلنى أخرج عن طورى ولا تنس واجباتك ! هذا أمر غير معقول ! (جارتان تلبسان حراماً تمران عند النافذة وتبتسمان) من كان يحسب ، أيها الجلد العتيق ، أنك ستجازينى بمثل هذا الجزاء ؟ هيا ! اضربنى إذا شئت ... هيا اقذف بالمطرقة فى وجهى .

الاسكافى : يا امرأة ! لا تفضحينا ... انظرى ! الناس قادمون ! يا إلهى !
(الجارتان تمران من جديد عند النافذة)

الاسكافية : لقد أهنت نفسى ! بلهاء ، بلهاء ، بلهاء أنا ! لعن الله أشبينى مانويل ، ولعن الله الجيران ! أنا بلهاء ، بلهاء ، بلهاء . (تخرج وهى تضرب رأسها)

المنظر الرابع

الاسكافى (وهو يتطلع إلى نفسه فى مرآة ويعد تجاعيده) : واحد ، اثنان ، ثلاثة ، أربعة ... ألف ! (يحدق فى المرآة) لكن الحمد لله ، الحمد لله : إنى أتساءل لماذا تزوجت ؟ كان على أن أفهم ، بعد أن قرأت الكثير من الروايات أنه إذا كانت كل النساء يعجبن الرجال ، فليس كل الرجال يعجبون النساء . آه ! لكم كنت سعيداً وأنا أعزب ! ولكنها أختى ، نعم أختى هى السبب فى هذا كله ! كانت تتسلط علىّ بهذه العبارات «ستبقى وحيداً» ... وأمثال هذه الكلمات . وكان هذا سبب خرابى . تبا لأختى ، رحمها الله ! (أصوات فى الكواليس)

ما هذا ؟

المنظر الخامس

جارة متدثرة بالأحمر (فى النافذة ، مضطربة جداً ، تصحبها ابنتاها ، تلبسان نفس اللون الأحمر) : مساء الخير .

الإسكافى (وهو يحك رأسه) : مساء الخير .

الجارة : قل لامرأتك تخرج . يا بنتاى ، ألا تتوقفان عن البكاء ؟ فلتخرج ولتردد فى وجهى ما تقوله خلف ظهرى !

الإسكافى : يا جارتى العزيزة ، لا أريد الفضيحة ، بحق الله ! ماذا تريدين

منى أن أفعل ؟ لـكن افهمى موقفى : لقد كنت أخشى الزواج طول حياتى ... لأن الزواج أمر خطير جداً ، وفى اللحظة الأخيرة ها أنت ترين ما وقع لى بسببه .

الجارة : مسكين أيها الرجل ! لقد كان الأولى بك أن تتزوج بامرأة من طبقتك ... هاتان الفتاتان مثلا ، أو بعض فتيات القرية .

الإسكافى : إن بيتى ليس بيتاً . إنه همهمة .

الجارة : هذا يمزق نياط قلبى ! لقد كنت دائماً رجلا شهماً لا غبار عليك طول عمرك .

الإسكافى (يتطلع هل زوجته قادمة) أول الأمس ... انتاشت الجامبون الذى احتفظنا به للأعياد ، وأتينا عليه كله . وبالأمس لم نتناول طول النهار غير حساء بالبيض والبقدونس ؛ ولما اشتكيت من ذلك جعلتنى أشرب ثلاث أكواب من اللبن غير المغلى واحدة بعد أخرى .

الجارة : يا لها من متوحشة !

الإسكافى : ولهذا أرجوك يا جارتى العزيزة أن تمضى لشأنك .

الجارة : آه لو كانت أختك لا تزال فى قيد الحياة ! لم تـكن أبداً ...

الإسكافى : هكذا ... وبهذه المناسبة تستطيعين استرداد حذائك فقد أصلح .

المنظر السادس

(من ناحية الباب الأيسر تظهر الاسكافية ، خلف الستارة ، وتتجسس على ما يجرى فى المسرح دون أن تشاهد) .

الجارة (بلطف) : كم تطلب على ذلك ؟ إن الأيام تزداد سوءاً ...

الإسكافى : ما تشائين ... ولا داعى للفصال من هنا ومن هناك ...

الجارة (دافعة ابنتيها بكوعها) : تكفيك بسيطتان ؟

الإسكافى : ماذا تقولين !

الجارة : سأعطيك بسيطة واحدة ...

الإسكافية (وقد خرجت من مكمنها مهتاجة) سارقة! (تصرخ النسوة خائفات) أتجرؤين على أن تسرقى رجلا شريفاً كهذا ؟ (مخاطبة زوجها) وأنت هل بلغت بك الغفلة أن تقبل أن تسرق ؟ دعى هذا الحذاء مكانه . وسيظل ها هنا إلا إذا دفعت عشر بسيطات .

الجارة : هوه ، هوه !

الإسكافية : حاسبى على ما تقولين !

البنتان : فلنذهب يا أماه ، أرجوك

الجارة (مخاطبة الاسكافى) هنيئاً لك بزوجتك ! هنيئاً !

(تخرج مع ابنتيها بسرعة . الاسكافى يغلق النافذة والباب)

المنظر السابع

الإسكافى : اسمعى قليلا ...

الإسكافية : (مكررة) : هوه ، هوه ... ماذا ، ماذا ، ماذا ... ماذا تريد أن تقول أنت ؟

الإسكافى : اسمعى يابنيتى . طول حياتى وأنا أعمل المستحيل لتجنب الفضيحة .

(يلعق لعابه باستمرار)

الإسكافية : أتجرؤ أن تقول إنى أحدث فضيحة حينما أهب للدفاع عنك !

الإسكافى : لا أقول لك أكثر من أنى أخشى الفضيحة ، كما يخشى السمندر الماء البارد .

الإسكافية (بسرعة) : السمندر ! يا للهول !

الاسكافى (متذرعا بالصبر) : لقد تحدونى بل وأحياناً سبونى ، وأنا الذى ليس عندى ولا هذا القدر (يشير بإبهامه) من الجبن ، لكننى بقيت ساكتاً فى زاويتى ، خوفاً من تجمع الناس حولى فأصبح مضغة فى أفواه الثرثارين والنمامين أفهمت ، هل كنت واضحاً فى كلامى ؟ هذه آخر كلمة أقولها لك .

الإسكافية : لننظر : ماذا عسى أن يهمنى من هذا كله أنا ؟ لقد تزوجتك فهل بيتك غير نظيف ؟ ألا تجد الطعام ؟ ألا تلبس بنيقات ومعاصم لم تلبس مثلها من قبل ؟ أليس لك يا سيدى ساعة ممتازة ذات سلسلة من الفضة بكهرمانات ، ساعة أملؤها كل مساء ؟ ماذا تريد أكثر من ذلك ؟ أن أصبح عبدتك ، ربما ؟ أما هذا فلا أبداً ! إنى لن أفعل إلا ما أريده .

الإسكافى : لا تقولى لى هذا ! لقد مضى على زواجنا ثلاثة أشهر : أما أنا فأحبك .. أما أنت فتصبين علىّ العذاب . ألا ترين أنى لا أستطيع المزاح بعد ؟

الإسكافية (جادة وكأنها تحلم) : أنت تحبنى .. أنت تحبنى .. لكن (باندفاع) ما معنى هذا ؟ ما هو الحب فى نظرك ؟

الإسكافى : أنت تتصورين أنى لا أرى شيئاً . إذن أفيقى من وهمك . أنا أعلم ماذا تفعلين وماذا لا تفعلين ، وقد بلغ الأمر .. حد التراقى !

الإسكافية (هائجة) : فليكن ! سيان عندى أن يبلغ الأمر عندك حد التراقى .. أو حتى هذا (تشير إلى أعلى من حلقها) ، وأنت لا تهمنى فى شىء ، وتعلم ذلك حق العلم ! (تنشىء فى النحيب) .

الإسكافى : ألا تستطيعين أن تتحدثى إلىّ بصوت خفيض ؟

الإسكافية : رحماك يا إلهى ، كم هو مغفل ! أنت تستحق أن أثير عليك الشارع كله .

الإسكافى : لحسن الحظ تنتهى هذه المهزلة كلها عما قريب ، وإنى أسائل نفسى كيف تذرعت بكل هذا الصبر .

الإسكافية : ليس عندنا اليوم طعام ‥ وتستطيع أن تبحث عن طعامك فى مكان آخر (تخرج الاسكافية بسرعة فى هياج) .

الإسكافى : وغدا (يبتسم) ربما كان عليك أيضاً أن تبحثى عن طعامك أنت الأخرى . (يغدو إلى منضدة الشغل) .

المنظر الثامن

(يبدو العمدة داخلاً من الباب الوسط . وهو يلبس حلة لونها أزرق بحرى ، فوقها معطف كبير وفى يده عصا ذات رأس من الفضة — شارة العمدية . يتكلم ببطء وتعاظم)

العمدة : دائماً منكب على الشغل ؟

الإسكافى : دائماً يا سيدى العمدة .

العمدة : هل تكسب ؟

الإسكافى : ما يكفينى .

(يستمر الاسكافى فى شغله ، والعمدة يتطلع فى كل النواحى)

العمدة : أنت لست مبسوطاً .

الإسكافى : (دون أن يرفع رأسه) : لا .

العمدة : زوجتك ؟

الإسكافى (مشيراً برأسه) : نعم زوجتى .

العمدة (وهو يجلس) : هذا ما يؤدى إليه الزواج فى مثل سنك .. إن الرجل فى مثل سنك ينبغى أن يكون أرمل ، أرمل عن زوجة واحدة على الأقل أنا .. أنا أرمل عن أربع زوجات : روزه ، مانويله ، بسيتاثيون وانركيتاجومث أخيرتهن ، وكلهن كن صالحات ، يحببن الأزهار والماء الرائق . ومع ذلك فإنهن جميعاً وبغير استثناء قد ذقن هذه العصا ، وأكثر من مرة . عندى ، لا توجد مشكلة !

الإسكافى : آه ! ها أنت ذا ترى كيف تجرى حياتى . إن زوجتى .. لا تحبنى . إنها تكلم الجميع من النافذة . حتى انها تكلم دون ميرلو . وهذا أمر يثير ثائرة دمى .

العمدة (ضاحكاً) : ذلك أنها صبية مرحة ، وهذا شىء طبيعى .

الإسكافى : دعنا من هذا ! إنى واثق أنها تفعل ذلك عمداً لتعذيبى .. نعم أنا متأكد من ذلك .. إنها تكرهنى . فى البداية كنت آمل ترويضها باللطف وبالهدايا الصغيرة : عقود من المرجان ، أشرطة حريرية ، أمشاط من الصدف . بل قدمت إليها أربطة للساق ! ولكنها .. ظلت دائماً كما هى !

العمدة : وأنت أيضاً بقيت كما كنت . لأنى أرى بعينى ولا أصدق أن رجلا ، رجلا بمعنى الكلمة ، يكون عاجزاً عن إخضاع لست أقول واحدة بل ثمانين امرأة . فإذا كانت امرأتك تتكلم مع الجميع من النافذة ، وتتمرد عليك فذلك أنك تريد ذلك ، ولأنك لست صلباً معها . مع النسوة ينبغى استعمال الشدة ، وإظهار الصلابة ، والكلام بصوت عال ! فإن لم يفلح ذلك فى تقويمهن فليس هناك إلا العصا ، ولا علاج غيرها . وتستطيع روزه ومانويلا وبسيتاثيون

وانركيتا جومث (أخيرتهن) أن يؤكدون لك ذلك من عالم الآخرة إن كن هناك حقاً .

الإسكافى : الحق أننى لا أجرؤ على أن أصارحك بشىء ما . (يتطلع وراءه بخوف) .

العمدة (بحزم) : قل لى ما هو !

الإسكافى : أنا فاهم أن هذا غريب جداً .. ولكن الواقع هو أنى لا أحب زوجتى .

العمدة : يا للشيطان !

الإسكافى : نعم سيدى يا للشيطان !

العمدة : فلماذا تزوجتها إذن أيها الوغد الكبير ؟

الإسكافى : هذه هى المشكلة . أنا نفسى لا أستطيع تفسير ذلك : إنها أختى ، أختى هى السبب فى كل هذا : « ستبقى وحيداً ... » ، وكلمة من هنا وكلمة من هناك ، وكان عندى شىء من المال ومن الصحة ، فقلت : « حسناً » . هذا كل مافى الأمر . أما الآن فإنى أتحسر على وحدتى الماضية ! تباً لأختى ، رحمها الله .

العمدة : وقعت إذاً !

الإسكافى : نعم وقعت ... لكن نفد صبرى . لم أكن أعرف ما هى . والعجب أنه كان لك أربع زوجات ، لك أنت ! واحدة بعد أخرى ! ولم تعد سنى تسمح لى باحتمال هذا الضجيج .

الإسكافية (تغنى فى الداخل بصوت قوى) :

آى ! الضجيج ، والضجيج
انتهى العيد البهيج !
هيا نَمْض للرماية !

الإسكافى : أنت سامع ؟ !

العمدة : وماذا نويت أن تفعل ؟

الإسكافى : الهرب . (يشير بيده)

العمدة : هل فقدت عقلك ؟

الإسكافى (منفعلاً) : « أيها الإسكافى إلزم الحذاء » — هـذا أمر انتهى بالنسبة إلىّ . إنى رجل مسالم ، ولم أعتـد هذه المنازعات ، ولا أن أكون مضغة فى أفواه الناس .

العمدة (ضاحكاً) : فـكر فيما تقوله ، وفيما أنت مقدم عليه وقادر على فعله ، ولا تكن مغفـلاً . من الأسف أن لا يكون لرجل مثلك خلق صلب كما يجب .

المنظر التاسع

(من البـاب الأيسر تظهر الاسكافية وهى تذر على نفسها الذرور بفرشاة وردية وتسوّى حواجبها)

الإسكافية : مساء الخير .

العمدة : مساء الخير (مخاطباً الاسكافى) ما أجملها ! إنها جميلة جداً

الإسكافى : أتعتقد ذلك ؟

العمدة : آه ! ما أروع هذه الورود فى شعرك وما أطيب عطرها !

الإسكافية : فى شرفة بيتك الكثير منها .

العمدة : نعم ، حقاً . أتحبين الأزهار ؟

الإسكافية : أنا ؟ . . . أنا أعبدها ! أود لو أضعها فى كل مكان ، على ثيابى ، وعلى جدران بيتى ، بل حتى على السقف نفسه ! . . لكنه هو . . . هذا الرجل . . لا يحبها . طبعاً ، لقد ظل حياته يصنع أحذية ، فماذا تريد منه إذاً ؟ (تجلس عند النافذة) : مساء الخير [تتطلع فى الشارع وتتكلم مع العابرين]

الإسكافى : ها أنت ذا ترى ؟

العمدة : إنها مندفعة قليلاً . . . لكنها حلوة جداً ! يا لجمال قوامها !

الإسكافى : أنت لا تعرفها .

العمدة : أوه ! (يخرج بجلال) إلى الغد . (مخاطباً الاسكافى) : ولتحاول أن تصفى رأسك ! نعمت بالراحة ، يا بنيتى . يا للخسارة ! هذا القد ! يقترب منها) لكن هيا بنا ! (مشيراً إلى شعرها) ! (يخرج)

المنظر العاشر

الإسكافية (تغنى) :

إن ترد أمك ملك
فى الورق أربع ملوك
بالقلب والفصفصة
بالمربع والحراب[1]

---

(١) أغنية شعبية التقطها لوركا ؛ والورق هنا هو ورق الكوتشينة بملوكها الأربعة وأحدها علامته القلب والثانى الفصفصة (البرسيم) والثالث المربع والرابع الحربة .

(الاسكافية تأخذ كرسياً وتقوم بتدويره ، وهى جالسة دائماً عند النافذة)

الإسكافى (يأخذ كرسيا آخر ويقوم بتدويره فى اتجاه عكسى) : أنت تعلمين جيداً أنى أعتقد فى هذه الخرافة ؛ وكأنك تصوبين الرصاص على قلبي . فلماذا تفعلين هذا ؟

الاسكافية (وقد تركت كرسيها) : لـكن ماذا فعلت ؟ ألم أقل لك إنك لا تسمح لى حتى بتحريك نفسى ؟

الاسكافى : لقد سئمت من الشرح لك ...؛ وعلى كل حال فإن هذا لا فائدة فيه (يتجه إلى المخرج ، لـكن الاسكافيـة تستأنف لعبتها ، فيعود الاسكافى مندفعاً ويدور كرسيه) . أيتها المرأة ، لماذا لا تدعيننى أخرج ؟

الإسكافية : يا إلهى ! إنى لا أرجو غير ذلك .

الاسكافى : إذن اتركينى !

الاسكافية (مهتاجة) : امش إذن !

المنظر الحادى عشر

(يسمع فى الـكواليس عزف ناى ، مصحوب بالقيثارة ، وهو يعزف پولـكا صغيرة فات أوانها على إيقاع مضحك ظاهر الإضحاك . والإسكافية تصاحب الإيقاع برأسها ، بينما الإسكافى يهرب من اليسار) .

الاسكافية (تغنى) : لا ران ... لا ران ... إنى أحب الناى دائماً ... نعم كنت دائماً مجنونة به .. إنه يجعل الدموع تطفر من عيونى .. الله ! ما أجمله ! لا ران . . لا ران . . اسمع . . كم بودى أن يسمعه . (تنهض وتنشىء فى الرقص مع عشاق خياليين) آى ! اميليانو ! ما أجمل الخاتم الذى فى أصبعك . كلا ، كلا ، إنه يجعلنى أخجل .. لـكن ، يا خوسيه ماريا ، ألا ترى أنهم يلاحظوننا ؟

خذ منديلا ، لا أريد منك أن توسخ فستانى . أحبك أنت ، أنت ! . . آه ، نعم ! . . غداً ستأتى على فرسك البيضاء ، تلك التى تعجبنى . (تضحك . الموسيقى تتوقف) يا خسارة ! هذا مثل تقريب العسل من الشفاه ... يا ...

المنظر الثانى عشر

(يظهر دون ميرلو عند النافذة ، وهو يرتدى حلة سوداء . وصوته مرتعد ويهز رأسه مثل الماريونيت) .

ميرلو : هُس ّ !

الاسـكافية : (دون أن تلتفت إليه ، وظهرها مدار ناحية النافذة) : پى ، پى ، پى ...

ميرلو (مقترباً) : هس ! يا إسكافيتى البيضاء بياض قلب اللوز ، المرة أيضاً مثل اللوز ! يا إسكافيتى ... أيتها القصبة المذهبة ... يا إسكافيتى الرقيقة ، يا رابية قلبى الجميلة .

الإسكافية : كفى مجاملات يا دون ميرلو . لم أكن أظنك قادراً على تنميق العبارات . وإذا رأيت فى هذه النواحى ميرلو[1][شحرور] قبيحاً أسود يطير .. فمن فضلك قل له إنه ليس عندى وقت لسماعه ... پى ، پى ، پى .

ميرلو : حينما تغزو ظلال المغيب الأرض بحجبها الخفيفة ويخلو الشارع العام من المـارة ، سأعود (يستنشق نشوقاً ويعطس على رقبة الاسكافية)

الاسـكافية (تدير وجهها هائجة ، ثم تصفع دون ميرلو صفعة يرتعد منها) آه ! (وجهها يعبر عن التأفف) وتباً لك إن عدت ، يا قليل الأدب ! يا عروسة

---

(١) تلاعب باللفظ : ميرلو Mirlo ، إذ هو اسم علم وفى نفس الوقت معناه : الشحرور .

بخيوط ... يا حامل القنديل ! ... امش ! هيا ! هل رأى أحد مثل هذا ؟ هذه الطريقة فى العطس ! الله معك إلى أقصى الأرض ! يا لك من مقزز !

المنظر الثالث عشر

(يتوقف أمام النافذة شاب ذو حزام من الصوف . وقبعته متكفئة على جبهته تبدو عليه علائم الحزن العنيف)

الشاب : أتشمين الهواء أيتها الإسكافية الشابة ؟

الإسكافية : مثلك تماماً .

الشاب : ودائماً وحدك .. يا للخسارة !

الإسكافية (باندفاع) : ولماذا « يا للخسارة » ! ؟

الشاب . امرأة مثلك ، لها هذا الشعر وهذا .. الصدر الفاتن ..

الإسكافية (بشدة أكبر) : نعم ، ولكن لماذا « يا للخسارة » ؟

الشاب : لأنك تستحقين أن ترسمى على البطاقات البريدية .. بدلا من أن تجلسى هنا .. فى هذا الدكان .

الإسكافية : صحيح ؟ .. أعترف بأنى أحب كثيراً البطاقات الملونة ، خصوصاً تلك التى يرى فيها عروسان فى شهر العسل .

الشاب : آه يا اسكافيتى الحسناء ، أية حمى تنتابنى ! (يستمران فى الحديث) .

المنظر الرابع عشر

الإسكافى (يدخل ويتراجع) : فى حديث مع كل الناس وفى هذه الساعة

ماذا عسى أن يقول الذاهبون إلى الكنيسة ساعة المسبحة ! وماذا عسى أن يقول الناس فى النادى ! لابد أنهم يرتعون فى لحمى ! وفى كل بيت ثوب بملابس داخلية وكل شىء[1]. [الإسكافية تضحك] آه ، يا إلهى! معى الحق إذن فى الفرار . بودى لو أسمع ما عسى أن تقوله زوجة خازن الكنيسة ؛ ثم القس أيضاً ! ماذا عسى أن يقولوا ؟ كان ينبغى علىّ أن أسمع ماذا يقولون ! (يخرج ، يائساً) .

المنظر الخامس عشر

الشاب : كيف تودين أن أعبر لك عن ذلك ؟ .. أحبك .. أحبك حباً ..

الإسكافية : حقا انى لدى سماعى قولك : « أحبك ، أحبك » ، أشعر كما لو كنت أدغدغ خلف أذنى بريشة : « أحبك ... أحبك . »

الشاب : كم عدد الحبات فى عباد الشمس ؟

الإسكافية : وما أدرانى ؟

الشاب : بعدد الزفرات التى أتنفسها فى كل دقيقة من أجلك ، أجلك أنت (يقترب منها كثيراً) .

الإسكافية (باندفاع) : على رسلك ! يلذ لى أن أسمع حديثك ، لأن هذا شىء لطيف ، يسرنى ، لكن هذا هو كل ما فى الأمر ، فاهم ؟ وهذا كاف .

الشاب : هذا غير ممكن ! هل عندك ارتباط آخر ؟

الإسكافية : اسمع ، امشى .

الشاب : لن أتحرك من هنا حتى تقولى لى نعم . آه ، يا إسكافيتى الصغيرة عدينى ! (يتهيأ لعناقها) .

الإسكافية (وهى تغلق النافذة بشدة) يا لك من وقح ، مجنون! إن كنت

---

(١) كناية عن كون حياته الخاصة أصبحت مما يتندر به فى كل مكان .

أصبتك بأذى ، فتبا لك ! .. وكأنى لست هنا إلا من أجل ، من أجل .. فى هذه القرية لا يمكن الكلام مع أحد إذن ! حسبما أرى ليس فى هذه القرية غير طرفين إما راهبة .. أو خرقة للمسح .. لم يبق غير هذا ! (تستنشق رائحة وتجرى بسرعة) يا إلهى ، الأكل على النار ! يا لى من ربة بيت فاسدة !

المنظر السادس عشر

(النور يتضاءل . يظهر الإسكافى فى معطف كبير وفى يده حزمة)

الإسكافى : إما أنى رجل آخر ، أو أنى لا أتبين نفسى ! وداعا يا بيتى الصغير ويا منضدتى ، ويا قطرانى ، ويا مساميرى ، ويا جلود العجول .. هيا .

(يتوجه ناحية الباب ، لكنه يصطدم عند العتبة بامرأتين متدينتين)

المتدينة الأولى : أنت ذاهب لتستريح ، أليس كذلك ؟

المتدينة الثانية : يحسن بك أن تستريح !

الإسكافى : (بضيق) : مساء الخير !

المتدينة الأولى : استرح جيداً يا معلم !

المتدينة الثانية : استرح جيداً ، استرح جيداً (تمضيان)

الاسكافى : نعم ، استرح جيداً ... وكأنهما لم تكونا تتجسسان من خرق المفتاح ! الساحرات ، الشرسات ! وهذه اللهجة المليئة بالتعريض ! نعم . . . كل القرية تتحدث عن ذلك : لقد فعل كذا ، وهى فعلت كذا ، والشبان ! آه ! تباً لأختى رحمة الله عليها ! الأفضل أن يكون المرء وحيداً فهذا خير من أن يشير إليه الناس بأصابعهم ! (يخرج بسرعة تاركا الباب مفتوحاً)

المنظر السابع عشر

[عن يسار تظهر الإسكافية]

الاسكافية : الأكل جاهز . . . سامع ؟ (تتقدم ناحية الباب الأيمن) سامع ؟ ماذا ! هل جرؤ على الذهاب إلى المقهى تاركا الباب مفتوحاً ... دون أن يكون قد انتهى من صنع الخف ؟ حينما يعود سأريه ! نعم سأريه ! الرجال هم الرجال ، يالأنانيتهم ، يالهم ...! (ترتعد) آه ، الدنيا برد ! (تشعل المصباح . من الشارع يأتى رنين الشخاشيخ التى فى أعناق القطعان من الماشية وهى عائدة إلى القرية . الإسكافية تنحنى على نافذتها) ما أعجب هذه القطعان ! أما الذى يعجبنى خصوصاً فهو النعاج الصغيرة . انظر ، انظر . . . تلك البيضاء الصغيرة التى لا تكاد تمشى . آى ! ولكن انظر إلى تلك الكبيرة التى تتعمد أن تدوس عليها ... ولا أحد يهتم (بصراخ) أيها الرامى ، ألا تفزع ؟ ألا ترى أن شاتك المولودة حديثاً تداس ؟ ! (وقفة) نعم هذا أمر يهمنى ... تقول إن هذا لا يعنينى ؟ يالك من وحش ! ... وكيف ! (تبتعد عن النافذة) ياربى ، ولكن إلى أين ذهب هذا الرجل الغريب ؟ إن تأخر دقيقتين أكثر من ذلك ، فسآكل وحدى ، أنى أكفى نفسى ، وفوق الكفاية . . . لكن هذا الطعام الفاخر الذى أعددته ! . . يخنى ببطاطس جبلية وقرنين من الفلفل الأخضر ، وخبز أبيض ، وشريحة من شحم الخنزير ، ونضيج من الليمون المعطر بقشر الليمون . . . لأنه فيما يتعلق بالاهتمام به ، أنا أهتم به ، نعم أهتم به كل الاهتمام .

[فى أثناء هذه النجوى تبدى نشاطاً جماً ، وتغدو من اليمين إلى الشمال ، وترتب الكراسى ، وتقرط الشمعة وتنفض ثوبها]

المنظر الثامن عشر

الصبى (عند العتبة) : ألا تزالين غاضبة ؟

الاسكافية : إلى أين أنت ذاهب ، يا عزيزى ؟

الصبى (عند العتبة) : لن تنهرينى ، أليس كذلك ؟ لأنك تعلمين أنى أحب أمى كثيراً ، رغم أنها تضربنى أحيانا ، أحبها عشرين ربعاً[1] أما أنت فأحبك اثنين وثلاثين ربعاً ونصفاً ...

الاسكافية : لماذا أنت لطيف هكذا ؟ (تجلس الصبى على ركبتيها)

الصبى : جئت لأقول لك شيئا لا يريد أحد أن يقوله لك : « اذهب أنت ، أنت ، اذهب أنت ، أنت » ، ولم يرد أحد أن يذهب . هنالك قالوا لى أن اذهب أنا ... لأن الخبر خبر هام ولا يريد أحد أن يفضى به إليك .

الاسكافية : إذاً قل لى : ماذا جرى ؟

الصبى : لا تفزعى ، لم يمت أحد .

الاسكافية : تكلم !

الصبى : اسمعى يا اسكافية ... (تدخل من النافذة فراشة ، فينزل الصبى من ركبتى الإسكافية ويجرى) فراشة ، فراشة ... أليس عندك قبعة ؟ إنها صفراء ، وفيها بقع زرقاء وحمراء ... ومن كل الألوان !

الاسكافية : لكن يا بنى ... أتريد ... ؟

الصبى (بقوة) : اسكتى وتكلمى بصوت منخفض . ألا ترين أنك ستفزعينها ، آه | اعطينى منديلك !

الإسكافية (تشارك فى اللعبة) : خُذْه !

الصبى : صه .. بهدوء وعلى مهل !

---

(١) الربع فى الموازين وزنه ٢٥ رطلا ويساوى ١١ كيلو جرام و ٥٠٢ جرام .

الإسكافية : لن تفلح إلا فى أن تجعلها تهرب .

الصبى [بصوت خفيض ، يدندن وكأنه يريد استدراج الفراشة] :

فراشـــة الهـــوا
جميـــلة البهـــا
فراشـــة الهـــوا
خضـــرا مذهبـــة
ســـنا سراجنـــا
فراشـــة الهـــوا
ابقى هنا ! هنا ؟! ..
لا تبتغين ذا ؟
هيـــا قفى هنـــا !
فراشـــة الهـــوا
خضـــرا مذهبـــة
ســـنا سراجنـــا
فراشـــة الهـــوا
ابقى هنا ! هنا ! ..
ابقى هنـــــا !
فراشتى ، هنـــا !

الإسكافية [لإثارة الضحك] : نعم ، نعم ، نعم !

الصبى : لا ، الأمر ليس لعباً . (الفراشة تطير)

الاسكافية : الآن ! الآن !

الصبى (يجرى فرحاً بالمنديل) : ألا تريدين الوقوف؟ألا تريدين التوقف عن الطيران ؟

الإسكافية (تجرى هى الأخرى من الناحية المضادة) : إنها تهرب ، تهرب

[الطفل يجرى ناحية الباب مطارداً الفراشة]

الاسكافية (بقوة) : إلى أين تذهب ؟

الصبى (يتوقف فجأة) : آه صحيح ! (بسرعة) لكن هذه ليست غلطتى .

الإسكافية : إذن قل لى ماذا جرى ! بسرعة !

الصبى : إذن اسمعى !... زوجك ، الإسكافى ، رحل إلى غير رجعة .

الإسكافية (مذهولة) : كيف ؟

الصبى : نعم ، نعم ، هذا ما قاله فى بيتنا قبل أن يصعد فى المركبة — وأنا بنفسى رأيته .. وقد كلفنا بأن نخبرك بذلك ، والقرية كلها تعرف هذا .

الإسكافية (تنهار على كرسى) : هذا غير ممكن ! لا أعتقد ذلك !

الصبى : هذا صحيح .. لا تنهرينى !

الإسكافية (ناهضة وهى فى أشد الغضب وتضرب الأرض بقدمها) : هذا جزائى ! هذا جزائى ! (الصبى يحتمى خلف المنضدة)

الصبى : سقطت منك دبابيس الشعر !

الإسكافية : إلى ماذا سيؤول أمرى ، وحيدة فى هذه الدنيا ! آى آى آى !

المنظر التاسع عشر

[الطفل يفر مسرعاً . النافذة والباب حافلان بالجيران]

الإسكافية : نعم ، نعم ، تعالوا انظروا إلىّ ، أيتها الثرثارات النمامات ، كل هذا بسببكن .

العمدة : اسمعى قليلا . إذا كان زوجك قد تركك فذلك لأنك لم تكونى تحبينه ، وما كان من الممكن استمرار هذه الحال .

الإسكافية : هل تعرف هذا الأمر خيراً منى أنا ؟! لا بل كنت أحبه ، وأى حب ! لقد تقدم إلىّ الكثيرون وكانوا صالحين وأغنياء وذوى جمال ، لكنى رفضتهم جميعاً وآثرته هو . يا عزيزى المسكين ، يعلم الله ماذا حكوا لك عنى !

زوجة خازن الكنيسة (وهى تدخل) : اهدئى يا امرأة .

الإسكافية : لن أستسلم أبداً . أبداً لن أستسلم . آى ! آى !

[من الباب تدخل جارات يلبسن ألواناً زاهية فاقعة ويحملن أكواباً كبيرة فيها مرطبات ؛ وهن يدرن حول الإسكافية وهى جالسة تندب حظها بضجيج ، وكل هذا يمضى بسرعة الباليه والمجموع الإيقاعى للباليه . والتنورات الكبيرة الفضفاضة تنتشر وهن يدرن . والناس جميعاً يتخذون موقفاً من العزاء الهزلى] .

الجارة المتدثرة بالأصفر : مرطب .

» » بالأحمر : مرطب لطيف .

» » بالأخضر : لتقوية الدم

» » بالأسود : عصير ليمون

» » بالبنفسجى : عشبة مغربية

» » بالأحمر : النعناع أحسن

» » بالبنفسجى : جاره !

» » بالأخضر : جارتى العزيزة !

» » بالأسود : اسكافية

الجارة المتدثرة بالأخضر : إسكافيتى العزيز ة

[كل هؤلاء الجارات يحدثن ضجيجاً هائلا ، بينما الإسكافية فى وسطهن تبكى وتصرخ] .

ستار

الفصل الثانى

المنظر الأول

[نفس المنظر . عن شمال ، منضدة الشغل ملقاة فى جانب . وعن يمين كونتوار عليه زجاجات ؛ وحوض ماء فيه تغسل الإسكافية الأكواب . الإسكافية خلف الكونتوار ، وذراعاها عاريتان ، وتلبس ثوباً أحمر صارخاً ، ذا تنورة فضفاضة وعلى المسرح منضدتان ، يجلس إلى أحداهما دون ميرلو وهو يحتسى كوباً من عصير الليمون ، وإلى المنضدة الأخرى يجلس الشاب ذو القبعة .

[الإسكافية تحك الأكواب بعنف وترتبها بعد ذلك على الكونتوار . ولدى الباب يظهر الشاب ذو الحزام الذى عرفناه فى الفصل الأول . إنه حزين وذراعاه مرتخيتان ويتطلع إلى الإسكافية بحنان . (وإذا بالغ الممثل فى تمثيل الشخصية ، فعلى المخرج أن يضربه بالعصا على أم رأسه . فلا ينبغى التكلف أبداً . إن « الفارس » تتطلب دائماً التمثيل الطبيعى . لقد قام المؤلف برسم الشخصية ، وقام الخياط بإلباسه . فلتلتزم البساطة إذن) . الشاب يتوقف عند الباب . ودون ميرلو والشاب الآخر يلتفتان ويتطلعان . إنه أشبه بمنظر سينمائى : فنظرات ومواقف الجماعة تعطى هذا المنظر تمام تعبيره . تتوقف الإسكافية عن الغسل وتتطلع فى الشاب بثبات . صمت] .

الإسكافية : ادخل !

الشاب ذو الحزام : ما دمت تريدين ذلك .

الإسكافية (مدهوشة) : أنا ؟ هذا أمر لا يهمنى أبداً ، لكن لما رأيتك عند الباب .

الشاب ذو الحزام : كما تشائين . (يستند إلى الكونتوار . ويقول بين أسنانه :) وهذا رجل آخر ينبغى ...

الإسكافية : ماذا تطلب ؟

الشاب ذو الحزام : أنا رهن إرشاداتك .

الإسكافية : إذن : إلى الباب !

الشاب ذو الحزام : آه يا إلهى ! كم تغيرت الأزمان !

الإسكافية : أتعتقد أنى سآخذ فى البكاء ؟ قل لى : ماذا تشرب : كأس خمر ، قهوة ، مرطب ؟ قل !

الشاب ذو الحزام : مرطب .

الإسكافية : لا تتطلع فىّ كثيراً وإلا انسكب الشراب .

الشاب ذو الحزام : آه ! إنى أموت فيك !

[أمام النافذة تمر فتاتان مدللتان . تتطلعان ، وترسمان علامة الصليب ، مرتاعتين ، تخفيان عيونهما خلف مروحتيهما الهائلتين وتخترقان الشارع بخطى قصيرة] .

الإسكافية : المرطب .

الشاب ذو الحزام (يتطلع إليها ويتنهد) : آه !

الشاب ذو القبعة (يتطلع إلى الأرض ويتنهد) : آه !

ميرلو (يتطلع إلى السقف ويتنهد) : آه !

الإسكافية (ملتفة ناحية الآهات الثلاث) : كفى آهات ! لكن هل هذا كباريه أو مستشفى ؟ أنتم تجاوزتم الحدود . لو لم أكن مضطرة إلى كسب قوتى بهذا المشرب البائس ، منذ أن تركنى وحدى زوجى المسكين العزيز المعبود بسببكم أنتم ، هل كنت أحتمل هذا ؟ ماذا تقولون ؟ يجب أن أطردكم من هنا !

ميرلو : مرحى ، مرحى ، أحسنت القول !

الشاب ذو القبعة : لقد فتحت مشرباً ، ونستطيع أن نبقى فيه ما نشاء من الوقت .

الإسكافية (هائجة) . : كيف ؟ كيف ؟

[الشاب ذو الحزام يتوجه ناحية المخرج ودون ميرلو ينهض مبتسماً وعليه سيما التفاهم الذى يشير إلى أنه سيعود]

الشاب ذو القبعة : ما قلته قد قلته .

الإسكافية : إذن قل ما يحلو لك ، وسأقول لك أكثر منه ؛ وأستطيع أن أؤكد لك ، لك أنت ولكل أبناء قريتك ، أن زوجى قد رحل منذ ثلاثة أشهر وأنى لن أستسلم لأحد أبداً ، لأن المرأة المتزوجة يجب عليها أن تظل فى مكانها ، كما أمر الله بذلك . وأعلم تمام العلم أنى لا أخاف من أحد ، إن فى عروقى يجرى دم جدى (أسكنه الله فسيح جناته !) : لقد كان مروضاً للخيول ، وكان رجلا بمعنى الكلمة . لقد كنت أمينة ، وسأظل أمينة دائماً ، مرتبطة بزوجى حتى الموت .

[دون ميرلو يخرج مسرعاً من الباب موحيا بإشارته بأن ثمت تفاهماً بينه وبين الإسكافية]

الشاب ذو القبعة [ناهضاً] : إنى غاضب غضباً يقدر على إمساك ثور من قرنيه ، وجعله يعض التراب ويأكل مخه نيئاً ، هكذا ! [يخرج مسرعا بينما دون ميرلو يمضى ناحية اليسار] .

المنظر الثانى

الإسكافية (ورأسها بين يديها) : يسوع ، يسوع ، يسوع ويسوع ! [تجلس] .

[من الباب يدخل الصبي ، ويتوجه إلى الإسكافية ويضع كفيه على عينيها] .

الصبي : احزري من أنا !

الإسكافية : ولدى ، الراعى الصغير من بيت لحم .

الصبي : هأنذا ! [يتبادلان القبلات]

الإسكافية : أجئت لتناول وجبة العصر ؟

الصبي : إذا شئت أن تقدميها لي . .

الاسكافية : عندى لك اليوم لوح شكولاته .

الصبي : صحيح ؟ أنا أحب دائماً أن أكون فى بيتك .

الإسكافية [وهى تعطيه لوح الشكولاته] : لماذا أنت نفمى هكذا ؟

الصبي : نفمى ؟ ألا ترين هذه العلامة الزرقاء فى ركبتى ؟

الإسكافية : أرنى ! [تجلس على كرسى واطىء وتأخذ الصبي بين يديها]

الصبي : صنع بى ذلك كونيو لأنه كان يغنى ... المقطوعة التى نظموها عنك ، فصفعته ، فرمانى بحصاة ، وها أنت ذى ترين .

الإسكافية : هل تؤلمك كثيراً ؟

الصبي : لم تعد تؤلمنى بعد ، لكنى بكيت .

الإسكافية : لا تهتم أبداً بما يقولونه .

الصبي : صحيح ، ولكن المقطوعة سافلة جداً ؛ وفى وسعى أن ألقيها عليك لكنى لا أريد .

الإسكافية [تضحك] : لحسن الحظ ، وإلا أحرقت لسانك بشطة محرقة .

[يتضاحكان]

الصبي : لــكن لماذا يقولون إنك السبب فى رحيل زوجك ؟

الإسكافية : بل هم السبب ! بسببهم هم صرت بائسة هكذا .

الصبي (حزيناً) : لا تقولى هذا يا إسكافيتى العزيزة .

الاسكافية : لقد كان مرآة عينى . حينما كنت أراه قادماً راكباً على فرسه البيضاء .

الصبي (مقاطعاً) : ها ، ها ، ها ! أنت تضحكين علىّ . زوجك الاسكافى لم يكن عنده فرس .

الإسكافى : ياولد ، شيئاً من الاحترام ! مؤكد أنه كانت عنده واحدة ، فرس بيضاء ، لــكنك ... لم تــكن قد وُلِدْتَ بعد .

الصبي (ماسحاً بيده على خدها) : آه هكذا !

الإسكافية : أنت ترى إذن .. لما عرفته كنت بسبيل الغسل على شاطىء النهر وكان النهر واطئاً إلى درجة أن فى وسع المرء أن يشاهد الحصى الصغار تضحك فى العمق تحت قشعريرة الماء . وكان يلبس حُـلّة سوداء مفصلة أحسن تفصيل ، ورباط عنقه كان من الحرير الفاخر ، وكان كله أحمر ، وفى أصابعه أربعة خواتم من الذهب تتوهج كأربع شموس .

الصبي : هذا جميل !

الإسكافية : نظر إلىّ ونظرت إليه . هنالك ارتميت على العشب . ويخيل إلىّ أنى لا أزال أشعر على وجهى النسيم العليل المار بين الأشجار . فأوقف فرسه ، وكان ذيل فرسه أبيض ناصعاً وطويلا حتى كان ينزل إلى ماء النهر . [الإسكافية على وشك البكاء . يبدأ فى سماع أغنية من بعيد] وكنت خجلى إلى

حد أنى تركت فى مجرى النهار منديلين جميلين ، صغيرين هكذا ..

الصبى : هذا مضحك !

الاسكافية : حينئذ قال لى .. [الأغنية تقترب . وقفة] صه ! . .

الصبى (ينهض) : الأغنية !

الاسكافية : الأغنية ! [وقفة ، كلاهما يتسمع] أتعرف ما يقولون ؟

الصبى [بحركة من يده] : بين ، بين !

الاسكافية : إذن غنها لى ؛ أريد أن أعرفها .

الصبى : لماذا ؟

الاسكافية : حتى أعرف فى مرة واحدة ما يقولونه عنى .

الصبى (يغنى ويتابع الوحدة) : ها هى الأغنية :

السيدة الأسـكافية
لمـا رحل زوجها
فتحت حـانة
يهرع إليها العِلْية

الاسكافية : سيدفعون ثمنها !

الصبى (يوقع بالضرب على المنضدة) :

من يشترى لك يا إسكافية
قماش ثيابك .
وحمالات صدرك التى من الباتستا

بحواشيهـا المطرزة بالدانتلا ؟
إن العمدة يغازلها
كذلك يغازلها دون ميرلو
إسكافية ، يا إسكافية
لقد لمعت يا إسكافية (*)

[بدأت الأصوات تقترب وتتضح الكلمات مصحوبة بنغمات الطنبور البشكونى . الإسكافية تمسك بشال وتطرحه على كتفيها]

الصبى (خائفاً) : إلى أين تذهبين ؟

الاسكافية : سأذهب لشراء مسدس !

المشهد الثالث

[الأغنية تبتعد ، الإسكافية تهرع إلى الباب ، لكنها تصطدم بالعمدة وهو يتقدم بجلال ضارباً الأرض بعصاه

العمدة : من يخدم هنا ؟

(*) يمكن نظم هذه الأغنية هكذا :
زوجة الإسكاف لما
رحل الزوج وسافر
فتحت فى البيت حانه
أمها الناس الأكابر
زوجة الاسكاف ! قولى :
مَن شرى صوف ثيابك
والبنستا فى دروعك
بحواشيها الدناتل ؟
عمدة الكفر يغازل
ثم ميرلو ، يا صبيه
صرت والله بهيه

الاسكافية : العفريت !

العمدة : ماذا حدث ؟

الاسكافية : حدث ما كان يجب عليك أن تعرفه منذ زمن طويل وما ينبغى عليك ألا تسمح به ، بوصفك العمدة . الناس تغنى أغنية عنى، والجيران على أبوابهم يسخرون منى ، ولما كنت بغير زوج يرعانى ، فإنى خارجة للدفاع عن نفسى بنفسى مادامت السلطات فى هذهالقرية مثل القرع ، وأصفاراً على الشمال، وألاعيب .

الصبى : مرحى ، مرحى أحسنت القول !

العمدة (بحزم) : ولد ، يا ولد ! كفى هـذراً ! ... (مخاطباً الإسكافية) هل تعرفين ما عملته ؟ لقد سجنت اثنين أو ثلاثة من الذين كانوا يغنون .

الاسكافية : بودى ن رى ذلك بعينى !

صوت (فى الـكواليس) : ول...د !

الصبى : أمى تنادينى . [يهرع إلى النافذة ن..ع..م ؟ وداعاً . وإذا شئت أحضرت إليك سيف جدى ، الذى شارك فى الحرب . أنا لا أستطيع استعماله ، كما تعرفين ، أما أنت فتستطيعين .

الاسكافية (باسمة) : إذا شئت .

صوت (فى الـكواليس): ول...د !

الصبى (وهو فى الشارع) : ن..ع..م !

العمدة : حسبما أرى ، إن هذا الولد العاقل الرقيق هو الشخص الوحيد فى القرية الذى تعزيه .

الاسكافية : ألا ستطيع أن تفتح فمك إلا على الاهانة ... ؟ بِمَ تسخر سعادتك ؟

العمدة : من رؤيتك بهذا الجمال الضائع !

الاسكافية : خير لك أن تحب كلباً ! [تقدم إليه كأساً من النبيذ] .

العمدة : يالها من دنيـا زائفة خداعة ! لقد عرفت الـكثير من النسوة نضرات مثل شقائق النعمان والورود العطرة .. السمراوات ذوات العيون نارية ، والشعور الناعمة مثل الياسمين ، وأكفهن دائماً دافئة ؛ النسوة اللواتى يمكن إمساك قدودهن بين هذين الاصبعين ، لـكن لم أجد مثلك ، مثلك نت واحدة أبداً . أمس الأول كنت مريضاً طوال الصباح بسبب أنى رأيت منشورين على العشب قميصين من أقمصتك بأربطة زرقاء ، لقد خيل إلىّ كأنى رأيتك ، يا إسكافية قلبى وروحى .

الاسكافية [مهتاجة] : اخرس أيهـا العجوز ؛ اخرس ! حينما يكون الانسان رب أسرة وله بنات فى سن الزواج ، فينبغى عليه ألا يغـازل بهذه الطريقة الوقحة غير اللائقة .

العمدة : أنا رجل .

الاسكافية : وأنا متزوجة .

العمدة : لـكن زوجك هجرك بغير أمل فى العودة ، أنا متأكد من ذلك.

الاسكافية : سأعيش كما لو كان هنا .

العمدة : لـكنى واثق — لأنه قال لى ذلك — أنه لم يكن يحبك أكثر من هذا [حركة من السبابة والابهام] .

الإسكافية : وأنا واثقة أن زوجاتك الأربع — تباً لهن — كن يكرهنك كراهيتهن للموت .

العمدة [ضارباً الأرض بعصاه] : هكذا؟

الإسكافية [رامية كأساً على الأرض] : هكذا ! [وقفة]

العمدة [بين أسنانه] : لو كنت زوجتى ، لأريتك كيف تخضعين !

الإسكافية (بتهكم) : ماذا كنت تقول ؟

العمدة : لا شىء ، كنت أقول لنفسى إنك لو كنت عاقلة لعرفت أنى أرغب وعندى الإرادة أن أكتب باسمك ، أمام موثق ، بيتاً فاخراً .

الإسكافية : ثم ماذا أيضاً ؟

العمدة : وصالوناً ممتازاً كلفنى خمسة آلاف ريال ، وأوانى من البلور ، وستائر من البروكار ، ومرايا كاملة .

الإسكافية : ثم ماذا أيضاً ؟

العمدة [بلهجة شاعرية] : وسريراً ذا تاج نقشت عليه طيور وسوسن من النحاس ، وحديقة فيها ست نخلات ونافورة .. بيتاً يسره أن يستقبل شخصاً جديراً بأن يقيم فيه ، شخصاً أنا أعرفه ، وسيكون فيه .. [موجهاً الخطاب إلى الإسكافية مباشرة] اسمعى ، ستكونين فيه ملكة !

الإسكافية [بتهكم] : إنى لم أعتد مثل هذا الترف . فاجلس أنت فى صالونك هذا ، وتمدد فى سريرك ، واعجب بنفسك فى مراياك ، واغرس نفسك تحت نخيلك ، فاغراً فاك لالتقاط البلح حين ينزل . أما أنا فسأظل كما أنا : إسكافية .

العمدة : وأنا عمدة . لكن اعلمى أن من يرد بإفراط لا يحصل على شىء : [يفرقع]

الإسكافية : وأنت فلتعلم أنك لا تعجبنى ولا يعجبنى أى إنسان فى هذه

القرية . أنت رجل عجوز هرم .

العمدة [غاضباً] : سينتهى بى الأمر إلى أن أزج بك أنت أيضاً فى السجن!

الإسكافية : حاول إذن !

[تسمع فى الشارع أصوات بوق مصحوبة بترنيات مضحكة]

العمدة : ماذا عسى هذا أن يكون ؟

الإسكافية [فرحة مفتوحة العينين] : ألعاب بهلوانية! [تضرب على ساقيها]

المشهد الرابع

[امرأتان تمران أمام النافذة]

الجارة المتدثرة بالأحمر : ألعاب بهلوانية !

» » بالبنفسجى : ألعاب بهلوانية !

الصبى [عند النافذة] : ربما يوجد فيها نسانيس ! هيا بنا !

الإسكافية (مخاطبة العمدة) : سأغلق الباب !

الصبى : إنهم قادمون إليك !

الإسكافية : صحيح ؟ (تقترب من الباب)

الصبى : انظرى !

المشهد الخامس

[لدى الباب يظهر الإسكافى متنكراً ، ومعه نفير ويحمل على ظهره لفافة من الورق ، والناس تحيط به ، الإسكافية تتخذ موقفا غير واضح ، الصبى ينفذ من النافذة ويتعلق بتنورتها]

الإسكافى : مساء الخير لكم جميعاً .

الإسكافية : مساء الخير يا صاحب الألعاب

الإسكافى : هل يمكن الاستراحة هنا ؟

الإسكافية : والشرب أيضاً إذا شئت .

العمدة : ادخل أيها الرجل الطيب ، وتناول ما تشاء ؛ وعلى حسابى . (مخاطباً الجيران) وأنتم ، ماذا تفعلون هنا ؟

الجارة المتدثرة بالأحمر : نحن لا نضايق أحداً لأننا فى وسط الشارع .

(الإسكافى يتلفت حواليه باستخفاء ويضع اللفافة على المنضدة)

الإسكافى : اتركهم يا حضرة العمدة .. فأنا أظن أنك أنت العمدة — لأنى أتعيش منهم .

الصبى : أين سمعت صوت هذا الرجل من قبل ؟ [طوال هذا المشهد الصبى ينعم النظر فى الإسكافى بدهشة] أرنا ألعابك ! [الجيران يضحكون]

الإسكافى : بعد أن أشرب كأساً من النبيذ .

الإسكافية (فرحة) : سترينا ألعابك فى بيتى ؟

الإسكافى : لو سمحت .

الجارة المتدثرة بالأحمر : إذن هل نقدر أن ندخل !

الإسكافية (بجد) : يمكنكم الدخول (تقدم كأسا الى الاسكافى)

الجارة المتدثرة بالأحمر (وهى تجلس) : سنستمتع قليلا [العمدة يجلس

العمدة : هل أنت قادم من مكان بعيد جداً ؟

الإسكافى : من بعيد جداً جداً .

العمدة : من أشبيلية ؟

الإسكافى : أبعد جداً .

العمدة : من فرنسا ؟

الإسكافى : أبعد جداً .

العمدة : من انجلترا ؟

الإسكافى : من جزر الفلبين .

[الجارات تهامسن إعجاباً ، والإسكافية فى غاية الانشراح]

العمدة : لا بد أنك رأيت المتمردين هناك ؟

الإسكافى : كما أراك أنت الآن .

الصبى : وكيف حالهم !

الإسكافى : لا وسيلة لإخضاعهم . تصور حضرتك أنهم جميعاً تقريباً إسكافية .

[الجيران ينظرون إلى الإسكافية]

الإسكافية [مغتاظة] : كيف ، ألا توجد هناك مهن أخرى ؟

الإسكافى : أبداً . كل أهل الفلبين إسكافية .

الاسكافية : ربما .. فى الفلبين هؤلاء الإسكافية يرتكبون حماقات ؛ أما هنا فإنهم مهرة ماكرون جداً .

جارة ترتدى الأحمر [بتملق] : أحسنت القول .

الإسكافية [باندفاع] : لم يطلب أحد رأيك .

جارة ترتدى الأحمر : يا بنتى !

الإسكافى [بحماسة ، مقاطعاً] : ما أطيب هذا النبيذ ، [بقوة أكبر] طيب جداً [صمت] نبيذ من عنب أسود سواد قلب بعض النسوة اللواتى عرفتهن .

الإسكافية : اللواتى عرفتهن أنت .

العمدة : سكوت ! وما هو عملك ؟

الإسكافى [يفرغ من شراب الكأس ، ويضرب بلسانه ويتطلع فى الإسكافية] عملى يبدو أنه ليس عملا ولكنه يتطلب الكثير من العلم . إنى أكشف عن الحياة من الداخل . وعندى مجموعة من الصور تمثل حكاية الإسكافى اللطيف ، وقصة الخبيث الإسكندرانى ، وحياة دون دييجو كورينتس ، ومغامرات فرنشسكو استبان الجميل ، وخصوصاً فن إغلاق فم النسوة الثرثارات الوقحات .

الاسكافية : كان زوجى المسكين يعرف كل هذه الأمور !

الاسكافى : سامحه الله !

الاسكافية : قل لى إذن ... [الجارات تتضاحكن]

الصبى : اسكتى .

العمدة [بحزم] : سكوت ، هذه الأمور تفيد الناس جميعاً . ابدأ حينما تريد .

[الإسكافى ينشر ورقته وفيها تشاهد حكاية بالصور ، مقسمة إلى لوحات صغيرة مرسومة بالطفل الأحمر ، وألوانها زاهية جداً ، الجيران يقتربون ، الإسكافية تجلس الصبى على ركبتيها]

الاسكافى : انتباه .

الصبى : آه ، ما أجمل هذا ! [يتحكك فى الإسكافية ، همهمة]

الاسكافية : تابع بانتباه ، فى حالة ما أعجز عن المتابعة .

الصبى : من المؤكد أنها أسهل من التاريخ المقدس .

الاسكافى : أيها الجمهور النبيل ، استمعوا إلى قصة حزينة ، حقيقية ، كلها عبر ، استمعوا إلى حكاية الزوجة ذات الشعر الأشقر وحكاية زوجها المسكين الصبور ، حتى يكون لكم فيها عبرة ومثل لكل الرجال ولكل النساء فى هذه الدنيا . [بصوت حزين] افتحوا آذانكم وعقولكم .

[الجيران يمدون أعناقهم ، والنسوة يضعن أيديهن بعضهن فى بعض]

الصبى : ألا ترين أن صاحب الألعاب هذا يتكلم كما يتكلم زوجك ؟

الاسكافية : كان صوت زوجى أحلى .

الإسكافى : هل أنتم مستعدون ؟

الإسكافية : إنى أقشعر .

الصبى : وأنا أيضاً !

الإسكافى [يشير إلى التفاصيل بقصبة صغيرة]

فى ضيعة بقرطبة

بين الشعار والدفلى

كان يعيش منجد

مع زوجته المنجدة

[تطلع]

وكانت الزوجة شرسة

والزوج كان صبوراً جداً
كانت هي تناهز العشرين
أما هو فقد جاوز الخمسين
يا إلهي ! كم تشاجرا !
أنظروا هنا إلى المتوحشة
وهي تسب زوجها الضعيف
بعينيها وشفتيها

[تشاهد امرأة مرسومة تفتح عينين واسعتين على نحو صبياني ثقيل]

الإسكافية : يا لها من امرأة شريرة ! [دمدمة]

الإسكافي : كان شعرها كشعر الإمبراطورة
هذه المنجدة
ولحمها كماء لوسينا
البلوري
وحينما كانت تهز تنورتها
في زمان الربيع
ينتشر العطر من كل ثوبها
عطر الليمون ورعي الحمام
آه من الليمون

يون ذات الليمون !

هــذه المنجــدة

ما أشهاهــا !

[الجيران يتضاحكون]

أنظروا إلى الشباب الوجيه

وهم يغـــــازلونها

ممتطين أفراسهم اللامعة

المزينة بأشرطة الحرير

شباب فى رونق الصبا كرام

يمرون أمام البــاب

ويجعلون ، عن قصد ،

حلقات سلاسلهم تلمع

وكانت المنجــدة

تتــكلم مع الجميــع

وكانوا هم يدورون

بأفراسهم على الأحجار

أنظروا إليها وهى تتحدث مع واحد منهم

وقد ادّهنت وازينت

بينما زوجها المسكين

يخز الجلد بالمخراز

[بطريقة درامية جداً ، ويداه متقاطعتان]

زوج عجوز محترم

متزوج بفتاة رقيقة

أيها الفارس الشرير

اقتنص حبيبتك من عند الباب

[الإسكافية ، وكانت تزفر زفرات شديدة ، تندفع فى البكاء]

الإسكافى (ملتفتاً إليها) : ماذا بك ؟

العمدة : لكن يا بنتى ! (يضرب الأرض بعصاه)

الجارة المتدثرة بالأحمر : لا بد أن لديها ما يدعوها إلى البكاء !

الجارة المتدثرة بالبنفسجى : استبعر !

[الجيران يتهامسون ويقولون : صه !]

الاسكافية : ذلك أن هذه الحكاية تؤلمنى ولا أستطيع أن أتمالك نفسى ! ألا ترى ؟ إنى لا أتمالك نفسى .

[تبكى ولما تحاول أن تتمالك نفسها ، تشهق شهقات مضحكة]

العمدة : سكوت !

الصبى : أترين ؟

الاسكافى : أريد ألا تقاطعونى ، من فضلكم ! واضح أنكم لستم مكلفين باستظهار هذه الحكاية عن ظهر قلب .

الصبي [زافراً] : صحيح !

الإسكافي (متضايقاً) :

وفي صباح يوم الاثنين

قرب الحادية عشرة والنصف

حينما لا تترك الشمس ظلا

للعيدان ولا لسلطـان الجبل(١)

وحينما يرقص النسيم

والخروب في الجبال

وتتساقط الأوراق

الخضر من القطلب(٢)

كانت المتجددة المتمردة

تروى خيريها(٣)

ثم جاء صديقها

راكباً فرساً قرطبياً

وقال لها بتأوه :

(١) سلطان الجبل madreselva نبات منير الشجر زاحف يحمل أزهاراً طيبة الرائحة .

(٢) القطلب madroñera : شجر يكثر في بلاد الشام دقيق الورق ناعم شديد الحمرة .

(٣) الخيري Alhalí : المنثور الأصفر .

« فتاتى ، إذا شئت ،

يمكننا أن نتعشى غداً

وحدنا ، فى بيتك »

ــ وماذا تفعل بزوجى ؟

ــ زوجك لن يعرف شيئاً

ما تظن أنك فاعل به ؟

ــ سأقتله .

ــ إنه حاذق . لعلك لا تستطيع .

هل لديك مسدس ؟

ــ عندى ما هو أحسن ، عندى موسى حادة

ــ هل تقطع جيداً ؟

ــ نعم ، أشد مما تقطع الريح الباردة .

[الإسكافية تغطى عينيها بكفها ، وتضم الصبى اليها ، بينما الجيران كلهم يتلهفون لسماع باقى القصة كما يبدو من تعبيرات وجوههم]

وليس فيها ثلم واحد

ــ ألم تكذب ؟

ــ سأحدث فيه عشر طعنات مؤكدة

موضوعة على النحو التالى

الذى يبدو لى رائعاً :

أربع فى حقوه

وواحدة فى ثديه الأيسر ..

وواحدة فى ثديه الأيمن

واثنتان فى كل ورك

— أتقتله حالاً ؟

— نعم فى هذا المساء حينما يعود

ومعه الجلد والخيوط

عند ثنية الساقية

[فى هذه اللحظة تماماً ، متسللاً مباشرة مع البيت الأخير ، ينطلق صراخ هائل فى الكواليس . الكل يقومون . يتردد صراخ آخر ، أقرب . الإسكافى يدع الفة والقصبة تسقطان . ارتعاد الحاضرين رعدات مضحكة]

الجارة المتدثرة بالأسود (عند النافذة) : لقد استلوا خناجرهم

الاسكافية : آه ! يا إلهى !

الجارة المتدثرة بالأحمر : وا رباه !

الاسكافى : ما هذا الضجيج والعجيج !

الجارة المتدثرة بالأسود : إنهم يتقاتلون . يتبادلون الطعنات بسبب هذه المرأة ! (تشير إلى الإسكافية)

العمدة (مضطرباً) : هيا بنا نرى !

الصبي : أنا خائف !

الجارة المتدثرة بالأخضر: اسرعوا ، اسرعوا ! [الكل يتدافعون خارجين]

صوت (فى الكواليس) : بسبب هذه المرأة الفاسدة !

الاسكافى : هذا لا يطاق ، لا أطيق هذا ! [يذرع المسرح ذهوباً وجيئة ويداه على رأسه]

[الكل يخرجون بسرعة صارخين ملقين نظرات الكراهية إلى الإسكافية . وهذه تغلق الباب والنافذة بشدة]

المشهد السادس

الاسكافية : رأيت يا سيدى أية فضيحة ! أقسم بالدم الغالى ليسوع أننى بريئة . آه ! ماذا عسى أن يكون قد حدث ؟ ... انظر ، انظر كيف أرتعش . [تريه كفيها] كأن كفى يريدان أن يفرا منى وحدهما .

الاسكافى : اهدأى يا بنيتى . هل زوجك فى الشارع ؟

الاسكافية (وهى تأخذ فى البكاء) : زوجى ؟ آه يا ربى !

الاسكافى : ماذا بك ؟

الاسكافية : زوجى هجرنى ، بسبب غلطة هؤلاء الناس ، وها أنذا وحيدة لا يعطف علىّ إنسان .

الاسكافى : مسكينة !

الاسكافية : خصوصاً وأنا كنت أحبه كل الحب ! كنت أعبده .

الاسكافى (بحركة مندفعة) : هذا غير صحيح !

الاسكافية (وقد توقفت فجأة عن البكاء) : ماذا تقول ؟

الاسكافى : كنت أقول إن هـذا أمر ... غير مفهوم ... حتى إنه يبدو غير صحيح . [مضطرباً]

الاسكافية : آه ، أنت على حق ، لـكن منذ ذلك اليوم وأنا لا آكل ولا أنام ولا أعيش ، لأنه كان سندى ، وكان سعادتى .

الاسكافى : لـكنه رغم حبك له هجرك ؟ يبدو لى أن زوجك كان رجلا قليل الإدراك .

الاسكافية : من فضلك احتفظ بلسانك فى جيبك . إنى لا أسمح لأى مخلوق أن يحكم عليه .

الاسكافى : معذرة ، ولـكنى لم أرد ...

الاسكافية : لأنه لم يكن له نظير فى الذكاء والمهارة ! . . .

الاسكافى (بتهكم) : نعم ، نعم .

الاسكافية (بقوة) : نعم يا سيدى . إن كل هذه الحـكايات والخرافات التى تغنيها وتقصها — متنقلا من قرية إلى قرية — لا تساوى شيئاً لو قورنت بما كان هو يعرف ، لقد كان يعرف ثلاثة أمثالها !

الاسكافى (بجد) : غير ممكن .

الاسكافية (بقوة) : بل وأربعـة أمثالها ... كان يحكيها لى كلها حينما تأخذ فى النوم . كان يعرف أقاصيص قديمة لم تسمع أنت بها أبداً . . ([illegible]) وكانت تملؤنى فزعاً !.. لـكنه كان يقول لى حينئذ : « يا عزيزة قلبى ! كل هذه أكاذيب » !

الاسكافى (غاضباً) : هذا كذب !

الأسكافية (متحيرة) : آه ! هل فقدت صوابك ؟

الاسكافى : هذا كذب !

الاسكافية [غاضبة] : لكن ما ذا تقول يا مهرج العفاريت !

الاسكافى [بقوة وقد وقف على قدميه] : أقول إن زوجك كان على حق تماماً . إن هذه الأقاصيص ليست إلا أكاذيب ، واختراعات لا أصل لها . [غاضباً]

الاسكافية (غاضبة) : طبعاً ، يا سيدتى . هل تحسبنى بلهاء ... لكن لا تنكر أن هذه الأقاصيص مثيرة .

الاسكافى : هذه مسألة أخرى ! إنها تثير النفوس القابلة للاستثارة .

الاسكافية : كل الناس عندهم شعور .

الاسكافى : الأمر يتوقف . فأنا عرفت كثيراً من الناس الذين ليس عندهم شعور . فنى قريتنا مثلاً كانت تعيش زوجة ... فى زمان ما ... وكانت من الفساد إلى حد أنها كانت تثرثر مع المعجبين بها وهى فى نافذتها ، بينما زوجها الاسكافى يصنع أحذية من الصباح إلى المساء .

الاسكافية (ناهضة وممسكة بكرسى) : أتوجه هذا الكلام إلىّ أنا ؟ ..

الاسكافى : كيف ؟

الاسكافية : أنا لا أحب التعريض والغمز واللمز . تكلم ! كن صريحاً .

الاسكافى (بتواضع) : سيدتى ، ماذا تقولين ؟ هل أعرف أنا من أنت ؟ لم أشأ أبداً أن أجرح مشاعرك . فلماذا تعامليننى هذه المعاملة ؟ (وهو يكاد يبكى) لكن بختى هكذا !

الاسكافية (بقوة ، ولكن بتأثر) : اسمع أيها الرجـل الطيب : إذا كنت قد كلمتك بهذه اللهجة فذلك لأنى عيل صبرى : كل الناس تهاجمنى ، وكل الناس تنتقدنى ؛ فكيف لا تريد منى أن آخذ دائماً موقف الدفاع عن نفسى ؟ أنا وحيدة ، أنا شابة ومع ذلك فإنى أعيش على ذكرياتى .. (تبكى)

الاسكافى (وهو فى غاية التأثر) : أفهم ، أيتها الشابة الرائعة . أنا أفهم أكثر بكثير جداً مما تتخيلين ، لأنى . . . يجب أن أقول لك بكل إخلاص إن موقفك . . نعم لا شك فى ذلك .. هو بعينه موقفى .

الاسكافية (مشغولة البال) : أهذا ممكن ؟

الاسكافى (يخر على المنضدة) : أنا ... هجرتنى زوجتى !

الاسكافية : إنها تستحق أكثر من الموت إذن !

الاسكافى : كانت تحلم بعالم ليس عالمى ، وكانت هوائية طاغية ، وكانت تحب المزاح وكل الأمور التى لم يكن فى وسعى أن أقدمها إليها ؛ وذات يوم عاصف هربت وهجرتنى إلى الأبد .

الاسكافية : وماذا تفعل الآن ، شارداً فى الدنيا ؟

الاسكافى : إنى أجرى وراءها بحثاً عنها ، لأعفو عنها وأعيش معها الأيام القليلة الباقية لى فى هذه الحياة . فى مثل سنى يكون المرء بائساً فى هذه الفنادق الضائعة .

الاسكافية (باندفاع) : تناول قهوة ساخنة فإنها تنفعك بعد كل هذه الخواطر الحزينة .

[تذهب إلى الكونتوار وتصب له قهوة ، وظهرها إلى الإسكافى]

الاسكافى [يرسم علامة الصليب بحركة مفرطة ، فاتحاً عينين واسعتين] : جزاك الله خيراً أيتها القرنفلة الحمراء .

الاسكافية [تقدم إليه الفنجان . وتحتفظ بالطبق فى يدها ، بينما هو يشرب بجرعات صغيرة] : هل القهوة طيبة ؟

الاسكافى (بتملق) : ما دامت من يديك !

الاسكافية (باسمة) : شكراً جزيلا !

الاسكافى (عند الجرعة الأخيرة) : آه ، كم أحسد زوجك !

الاسكافية : لماذا إذاً ؟

الاسكافى (بتلطف) : لأنه استطاع أن يتزوج أجمل امرأة على ظهر الأرض !

الاسكافية (وقد تأثرت بكلامه) : إن عندك كلمات معسولة !

الاسكافى : والآن أكاد أغتبط لأنى سأرحل ، إننى وحيد ، وأنت أيضاً وحيدة ، وجميلة جداً ؛ ولى لسان أخشى أن يبدر عنه بعض البوادر ..

الاسكافية (تمالك نفسها) : بحق الإله الا سكت . ماذا تظن بى ؟ إنى أحتفظ بقلبى كاملا لمن يذرع الطرق ؛ وهو له : لزوجى .

الاسكافى (فى غاية الانبساط ، يلقى بقبعته على الأرض) : حسناً ! نعم المرأة الأمينة الوفية !

الاسكافية (بتهكم وفى شىء من الدهشة) : يخيل إلىّ أنك ... (تضع سبابتها على صدغها)

الاسكافى : كل ما تشائين . لكن اعلمى وافهمى أننى لا أحب أحداً مثل ما أحب زوجتى ، زوجتى الشرعية .

الاسكافية : وأنا أحب زوجى ، ولا أحب فى الدنيا أحداً مثلما أحب

زوجى . كم مرة أكدت هذا الكلام حتى يسمعه الصم أنفسهم ! (ويداها متقاطعتان) آه ، يا زوجى الإسكافى العزيز !

الإسكافى [مخاطباً نفسه] آه ، يا اسكافيتى العزيزة .

[يسمع قرع على الباب]

الإسكافية : يا إلهى ! المرء هنا فى حالة انتباه دائم ، مَنْ ؟

المشهد السابع

الصبى : افتحى !

الاسكافية : هل هذا ممكن ؟ كيف جئت ؟

الصبى : جئت مسرعاً لأحكى لك ...

الاسكافية : ماذا جرى ؟

الصبى [يتصبب عرقا ، ويلهث] : شابان أو ثلاثة جرح بعضهم بعضاً بسكاكينهم ، وهم يقولون إن ذلك بسببك أنت . الدم يجرى ! وكل النسوة ذهبن إلى القاضى ليأمر بطردك من القرية — أمر فظيع والرجال يطلبون إلى خازن الكنيسة أن يقرع النواقيس لغناء أغانيك .

الإسكافية [مخاطبة الإسكافى] : أترى هذا ؟

الصبى : الميدان مزدحم بالناس .. وكأنه العيد .. والجميع ضدك أنت !

الإسكافى : الأوغاد ! أريد أن أذهب للدفاع عنك !

الإسكافية : ما الفائدة ؟ سيضعونك فى السجن . أنا التى سأذهب لأريهم .

الصبى : من نافذة غرفتك تستطيعين أن تشاهدى الضجة التى يحدثونها فى الميدان .

[بحرارة] : هيا بنا ، أريد أن أطلع على سفالة الناس . [تخرج بسرعة] .

المشهد الثامن

الإسكافى ؟ نعم ، نعم ، ... يا أوغاد ! عما قليل سأطلب منكم الحساب : منكم جميعاً ، وستدفعونه ... آه ، يا بيتى العزيز ، أية حرارة تسرى فيك وتهب علىَّ من نوافذك وأبوابك ؟ ... حينما أتذكر الفنادق الفظيعة والطعام الردىء والمفارش الخشنة من الصوف الأسود — التى عرفتها فى مسالك الدنيا ! أ كنت من الحماقة بحيث لم أدركِ أن لى زوجة من الذهب الخالص ، من أحسن ذهب الدنيا ! آه ، أ كاد أذرف العبرات !

المشهد التاسع

الجارة المتدثرة بالأحمر (تدخل بسرعة) : أيها الرجل الطيب ...

الجارة المتدثرة بالأصفر [بسرعة] : أيها الرجل الطيب ...

الجارة المتدثرة بالأحمر : اخرج من هذا البيت . أنت رجل فاضل ، مكانك ليس ها هنا .

الجارة المتدثرة بالأصفر : أنت هنا عند لبؤة ، عند ضبعة ...

الجارة المتدثرة بالأحمر : عند امرأة ساقطة ، تحطم قلوب الرجال .

الجارة المتدثرة بالأصفر : لا بد أن ترحل عن القرية ، وإلا طردناها نحن . إنها تجعلنا نجن .

الجارة المتدثرة بالأحمر : ميتة أريد أن أراها .

الجارة المتدثرة بالأصفر : فى كفنها ، وعلى صدرها باقة .

الاسكافى [جزعا] : كفى !

الجارة المتدثرة بالأحمر : سالت الدماء .

الجارة المتدثرة بالأصفر : كل المناديل حمراء بالدم !

الجارة المتدثرة بالأحمر : رجلان كأنهما شمسان !

الجارة المتدثرة بالأصفر : والسكاكين مغروزة فيهما !

الاسكافى [بصوت شديد] قلت : كفى !

الجارة المتدثرة بالأحمر : بسببها هى .

الجارة المتدثرة بالأصفر : هى ، ولا أحد غيرها هى ، هى .

الجارة المتدثرة بالأحمر : نحن نريد مصلحتك .

الجارة المتدثرة بالأصفر : نحن ننبهك فى الوقت المناسب .

الاسكافى : كاذبات ، خادعات ، سافلات ! سأقتلع شعركما .

الجارة المتدثرة بالأحمر [مخاطبة الأخرى] : لقد استولت عليه هو الآخر .

الجارة المتدثرة بالأصفر : بفضل قبلاتها طبعاً !

الإسكافى : اذهبا إلى الشيطان أيتها السعلاتان ، السكافرتان !

الجارة المتدثرة بالأسود [عند النافذة] : ياجارتى ، تعالى بسرعة !

[تختفى وهى تعدو . وكذلك الجارتان]

الجارة المتدثرة بالأحمر : فريسة أخرى فى أحبولتها !

الجارة المتدثرة بالأصفر : فريسة أخرى !

الاسكافى : ساحرات يهوديات ! سأضع مواسى فى أحذيتكم ! سأكون كابوساً فى منامكم !

المشهد العاشر

الصبى [يدخل مسرعا] : دخلت جماعة من الناس عند العمدة . أنا ذاهب لمعرفة ما يقولون [يخرج وهو يعدو]

الاسكافية (بكل شجاعة) : لو تجاسروا على المجىء فأنا هنا فى انتظارهم ، برباطة جأش ابنة المهربين الذين اخترقوا الجبال آلاف المرات ، بغير سرج ، على الفرس العارى .

الاسكافى : وهذه الشجاعة لن تخونك أبداً ؟

الاسكافية : أبداً ، ما دمت أستند إلى الحب والشرف ، فى وسعى أن أصمد حتى يتحول شعرى كله إلى أبيض .

الاسكافى (بتأثر شديد ، يتقدم نحوها) : آه ...

الاسكافية : لكن ماذا جرى لك ؟

الاسكافى : أنا متأثر .

الاسكافية : أنظر ! كل القرية ضدى ، يريدون ، يريدون أن يأتوا ليقتلونى ، ورغم ذلك فلا أشعر بأى خوف . سكاكين ؟ عصى ؟ سأعرف كيف أواجهها ! لكنى حين أغلق هذا الباب بالليل وأدخل وحيدة لأنام .. أشعر بالحزن .. وأى حزن ! وأشعر بجزع وقلق ! .. إذا قرقعت الخزانة وثبت من فراشى . وإذا رن المطر بقطراته على زجاج النافذة ، وثبت من فراشى . وإذا هززت — رغماً عنى — أكر السرير النحاسية ، وثبت مرتين ؟ وما هذا كله إلا بسبب الخوف من الوحدة ، المليئة بأشباح لم أرها ، لأنى لا أريد أن أراها ؛

لكنى أعرف أن أمى رأتها ، وكذلك رأتها جدتى ، وكل نساء أسرتى اللواتى كانت لهن عيون ترين بها .

الاسكافى : ولماذا لا تغيرين حياتك ؟

الاسكافية : هل أنت فى تمام وعيك ؟ ماذا أعمل ؟ إلى أين أذهب فى هذه الظروف ؟ أنا هنا والله يفعل ما يشاء .

(فى الخارج ومن بعيد جداً ، تسمع همهمات وتصفيقات)

الإسكافى : أنا آسف كل الأسف ، ولكن يجب علىّ أن أرحل قبل أن يغشانى الليل . كم حسابى ؟ [يأخذ لفافته]

الإسكافية : لا شىء .

الإسكافى : وأنا لا أقبل .

الإسكافية : تبادلنا المنافع .

الإسكافى : شكراً جزيلا . [حزيناً ، يضع اللفافة على كتفه] إذن وداعاً ... إلى الأبد ... لأنه فى مثل سنى ... [متأثر جداً] .

الإسكافية [متمالكة نفسها] : لم أكن أود أن نفترق هكذا . وأنا فى العادة أكثر مرحاً . [بصوت واضح] أيها الرجل الطيب ، أراك الله زوجتك ووهبك العناية والستر اللذين اعتدتهما .

[يغلبها التأثر هى الأخرى]

الإسكافى : وأنا أيضاً أتمنى هذا لزوجك . لكنك تعلمين أن العالم صغير : فماذا تريدين منى أن أقول له لو تصادف ولقيته فى طريقى ؟

الإسكافية : قل له إنى أعبده .

الإسكافى [مقترباً منها] : وماذا أيضاً ؟

الإسكافية : وأنه على الرغم من كونه تجاوز الخمسين — بارك الله فى هذا الخمسين ! — فإنه فى نظرى أكثر شباباً وإغراء من كل الناس فى الدنيا .

الإسكافى : عجيبة يابنيتى ! إنك تحبينه بقدر ما أحب أنا زوجتى !

الإسكافية : بل أكثر بآلاف المرات !

الإسكافى : مستحيل . إنى معها مثل الكلب الوديع وهى التى تتحكم . لكن لتتحكم كما تشاء ! إن شعورها أقوى من شعورى . [يقترب منها جداً ويسلك معها مسلك العابد الضارع أمامها] .

الإسكافية : ولا تنس أن تقول له أنى أنتظره وأن الليالى فى الشتاء طويلة .

الإسكافى : إذن ستحسنين لقاءه إن قدم ؟

الإسكافية : كما لو كان الملك والملكة معاً .

الإسكافى : [مرتجفاً] : ولو شاء البخت ووصل فوراً ؟

الإسكافية : سأجن من الفرح .

الإسكافى : وستغفرين له جنونه ؟

الإسكافية : لقد غفرت له منذ وقت طويل !

الإسكافى : أتودين أن يحضر حالاً ؟

الإسكافية : آه لو جاء !

الإسكافى : [صائحاً] : ها هو ذا أمامك !

الإسكافية : ماذا تقول ؟!

الإسكافى : [وهو ينزع نظارته وثيابه التنكرية] : لم أعد أحتمل يا إسكافيتى العزيزة !

[الإسكافية تقف كالمجنونة ، وذراعاها بعيدتان عن جسمها . الإسكافى يعانقها وهى تنظر إليه وتحدق فيه وسط اضطرابها الهائل . وفى الخارج يسمع بوضوح ترديد أغان]

صوت [فى الكواليس] :

السيدة الإسكافية
لما رحل زوجها
فتحت حانة
يهرع إليها العلية

الإسكافية (متمالكة نفسها) : يامتشرد ، ياقاطع طريق ، ياوغد ، ياسافل ! أنت سامع ؟ كل هذا بسببك ! [تقلب الكراسى]

الإسكافى [وهو فى غاية التأثر ، يتوجه ناحية منضدة الشغل] : زوجتى العزيزة !

الإسكافية : يامتشرد ! آه ، يا لفرحتى بعودتك ! أية حياة سأهيؤها لك ! عذاب محاكم التفتيش ، للعبديين فى روما ... أسوأ من ذلك !

الإسكافى [وهو جالس إلى منضدة الشغل] : يابيت سعادتى !

[الأغانى تتردد عن قرب قريب جداً ؛ الجيران يظهرون لدى النوافذ]

أصوات [فى الكواليس] :

من يشترى لك يا إسكافية
قماش ثيابك
وحمالات صدرك التى من الباتستا
بحواشيها المطرزة بالدانتلا ؟
إن العمدة يغازلها
كذلك يغازلها دون ميرلو
إسكافية ، يا إسكافية
لقد لمت يا إسكافية

الإسكافية : يا لشقائى ! مع هذا الرجل الذى وهبنى الله إياه ! [تذهب ناحية الباب] اخرسى أيتها الألسنة الشريرة ، أيها اليهود الملعونون ! تعالوا الآن ، تعالوا ، إذا تجاسرتم ! الآن يدافع عن بيتى اثنان ، أنا وزوجى . [تتوجه ناحية زوجها] نعم هذا المتشرد ، قاطع الطريق !

[ضوضاء الأغانى تملؤ المسرح . وناقوس يدق من بعيد ، يدق بعنف]

الستار

ختام مسرحية
« الإسكافية العجيبة »





الثمن ٤٠ ص

المطبعة العالمية ١٦، ١٧ ش ضريح سعد بالقاهرة